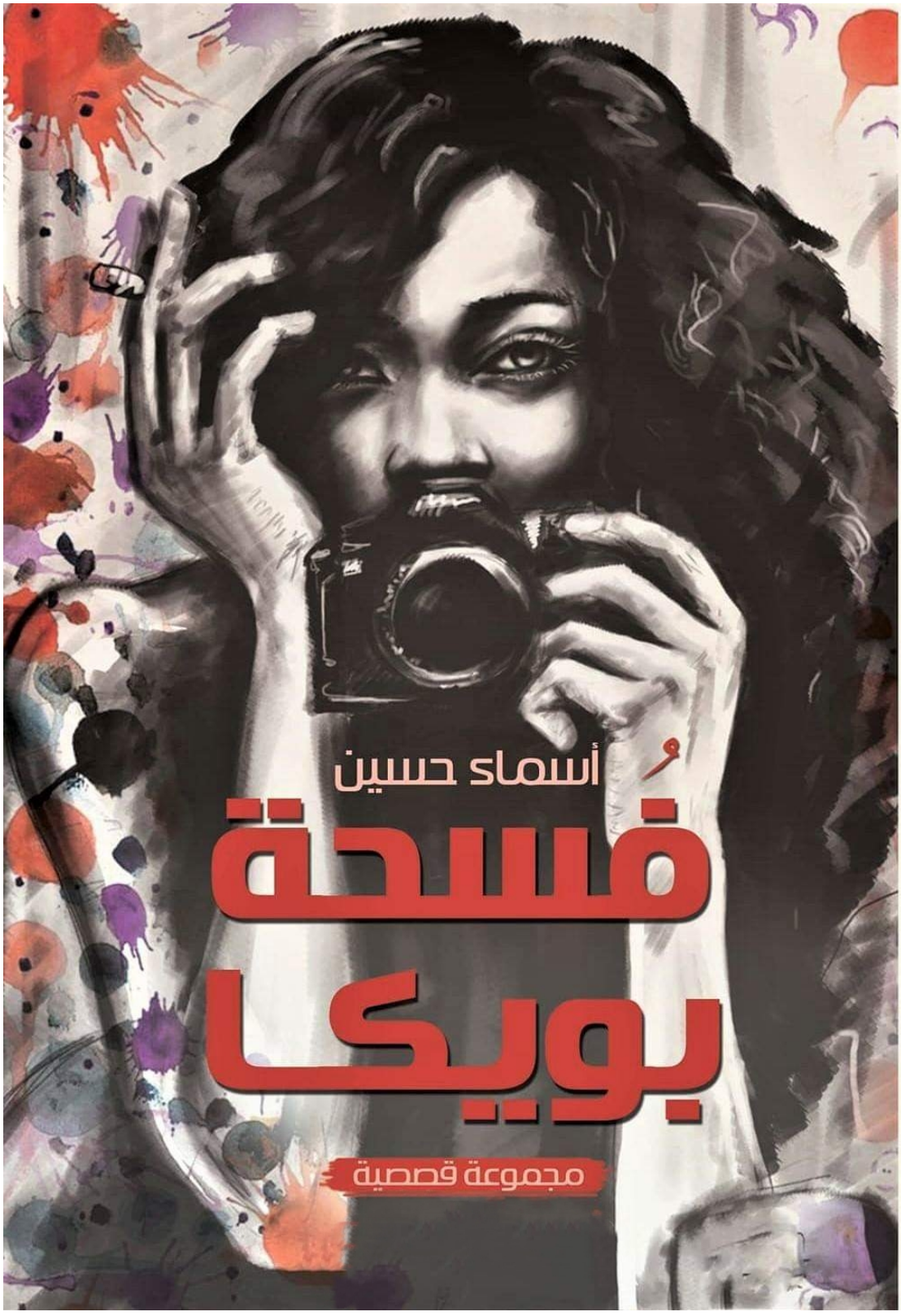
أسماء حسين
فُسحة بويكا
مجموعة قصصية

أسماء حسين

فُسحة بُويكا

قصص

فسحة بويكا
قصص
أسماء حسين
الطبعة الأولى: يناير 2018
رقم إيداع: 2018/5820
ترقيم دولي: 977978-6594-39-5
الغلاف: عبير محمد
جميع الحقوق محفوظة

فصلة للنشر والتوزيع
بريد الكتروني: fasla.pub@gmail.com
موقع الكاتبة: https://asmasia-g.blogspot.com/

من
2012 - 2009

"هذه النصوص ككل شيء آخر، صالحة، فقط حتى لحظة الانتهاء من كتابتها!"

إهداء حب

إلى نور خليفة

إصرار دون ترصد

-"لا يا حلوتي أنتِ لي، وهي لتربي أطفالها فقط، سأراك الليلة، لن يأتوا قبل ثلاثة أيام."
لم يقتصر الأمر على الثلاث ليال تلك فقط مطلقًا.
كل ليلة يتسلل إلى غرفتها بمكر من دون علم الجميع، يتسلل إليها هي نفسها أو ينتزعها عنوة ويقضي مآربه ثم يلقي بها مجددًا كالدمية إلى فراشها، أحيانًا يتسلل إلى السطح، المطبخ، وحتى إلى طفولتها ذاتها، صار كالضباب الذي يتسرب حولها في كل مكان ليخنقها تمامًا ويطاردها في كل زاوية ولحظة من حياتها.
في كل مرة يتقدم لخطبتها أحدهم لا يتعاقب يوم إضافي على قدومه قبل أن يرحل حاملًا معه الرفض. وفي كل مرة تتأخر دورتها الشهرية ترتعب من كل الكوابيس المزدحمة بالأطراف المدببة الحادة التي تنغرس فيها خلال نومها، والتي تصبح مع الوقت روتينًا يشبه تناول الشاي ليلًا في حياتها أو ابتلاع اقراص التعطيل، كوابيس صغيرة تشبه جرعات شاي متقطعة خلال كابوس طويل هو حياتها نفسها الآن.
الليلة، كانت الأحزن على الإطلاق، تلك المرة أيضًا كان الجواب بالرفض الحاضر في الحال، إلا أن قلبها في هذه المرة تفتت؛ لأنها بحسب ما تدرك بمشاعر فتاة يافعة تفتحت مشاعرها أخيرًا بعد عمر طويل من تفتح جسدها عنوة، كانت تحب.
الليلة نفسها تسلل إلى غرفتها من جديد، وأشبعها بالصفعات عقابًا على ما أبدت له من حزن ظاهر، ثم بدأ في تمزيقها من جديد، كما يمزقها كل ليلة، كل يوم، كل حين، جسدًا وروحًا، ويلقي بها في النهاية كخرقة بالية تتمنى الموت تحت أول قدم تطأها من أجل النجاة للأبد.
هذه الليلة كان يترنح من الوهن رغم فظاظته ويقارب على الغثيان، قبل أن يسقط بارتطام مكتوم الدوي إلى جوار جسدها وتتنفس الصعداء في رجفة.
خلال ذلك الصباح أتت بالقهوة كعادتها، وفي طريقها لمناولته إياها توقفت يدها في الهواء فلحق بنظرها المركز على ياقته المفتوحة التي أظهرت بقعتين حمراوين تشوبهما الزرقة في عنقه من أثر أظافر معادية، بينما تابع هو تحديقه فيها بنظرات مفزعة. خلال ثوانٍ ممتدة لم تناوله القهوة يدًا بيد، اكتفت بوضعها على المنضدة القريبة وهي تخفي رعشة يديها، واندفعت للإختباء في القبو الذي شهد موتها لسنوات عديدة دون أن يصدر أدنى رائحة عن تكوم روحها فيه. كانت تلك إحدى اللحظات النادرة التي تشعر فيها بأن غرفتها البغيضة ملاذ ومهرب.
أحضرت طاقم الأدوات الحادة التي أعدتها مسبقًا لمهمة الليلة من دولابها، وبدأت العمل في هدوء من اكتفى من الصخب وكف أخيرًا عن المعاناة منه. استمر عملها المتقن حتى الصباح، كانت حريصة على إتقانه تمامًا وتجد متعة غريبة في إكمال لوحتها. هكذا أحسنت صنيعها الأخير تمامًا، وودّعت القبو الذي ظلت وفية له طويلًا بأن أهدته جثة أخرى، جديدة.

وجلست برفق في إنتظار الآخرين لمساعدتها على الخروج من القبو، أخوتها الذين سيصمّون آذانها بالصراخ، وأمها التي ستتهمها بالجنون وهي تحول والدها إلى فصوص من اللحم بعد قتله، والغرباء الذين سيتقززون من فعلتها ويدينون ضميرها، وأفراد الأمن الذين سيضعون الأغلال في يديها بينما هي تبتسم بصورة لن يتمكن من تفسيرها الجميع، تشعر لأول مرة بالحرية والآدمية، كما لم تشعر من قبل. بينما تسير وسط كل اللعنات غير مضطرة لأن تفسر الأمر لأحد.

جريمة كاملة

السائق، الذي بدا وكأنه لم يمضغ لبانًا من قبل، مازال يقلّبه بلسانه وكأنه يتلذّذ بتعذيبه، باغته وخرج من زاوية فمه وقد اهترأ تمامًا، فأخمده في فمه بسرعة، أنه يقوم بالأمر كمن يوشك على ارتكاب جريمة كاملة لا يمكن أن نستدلّ على دوافعها.

ينزلق منه ثانية ويتسلّل من بين القواطع، فيعيده بتوتر الى الداخل.

حركة فكّه الأسفل البطيئة دفعت اللبان إلى أضراسه الخلفية، فالتصق في سقف فمه، ربما كمحاولة أخيرة للنجاة.

بينما تجاعيد السائق تتنفّس بحرارة، وحتى تلك التي كان يجب أن تظهر بعد سنوات، حفرت أخاديد عميقة في وجهه وجبهته.

لم ينتبه إلى أنه تجاوز موقفًا للسيارات إلا بعد أن بدأ الراكب يطرق على النافذة متذمرًا لفوات محطته، فأوقف الباص، ببرود تام، وأطرق لبرهة.

ثم حاول أن يبتسم وهو يقول للراكب: لم تكن غلطتك،

وليست غلطتي أيضًا!

وبصَق اللبان المعذّب أخيرًا.

سيرة ذاتية

بُني الصغير.
أُطمئنك بخصوصي، أنا الآن على أفضل ما يرام، لولا شعور السأم الذي يغمرني بترف.
لا تقلق، مجرد شعور طبيعي يراود من هم في سني، ربما غير الطبيعي هو سني بحد ذاته.
لم يعد هناك ما أنتظره، وكل ما تبقى لي حفنة أمنيات، أنفقها ببذخ في تخيّل صيغة مشرّفة لموتي.
حسنًا، دعني أسلي خاطرك بواحدة، - شريطة ألَّا تسخر -
كثيرًا ما يراودني حلم ضبابي تُحرق فيه جثتي بلا طقوس ويذر رمادها فوق مصنع للنسيج على أطراف قرية نائية، هناك، تحديدًا حيث أتيت من رحم نول يبلغ عرضه ثمانين سنتيمترًا تغزل عليه سيدة خمسينية تنصهر حزنًا على ابنها الشهيد في الحرب، "ربما يفسر ذلك بعض نوبات الكآبة والشجن التي تجتاحني بلا سبب".
بالمناسبة، محسوبك أمضى شطرًا من حياته خاضعًا لوهم أن أصوله تعود إلى رالف لورين، "عائلة أرستقراطية مؤكد قد سمعت بها من قبل."
للأمانة لم يكن هناك ما يدحض أوهامي إبتداءً من التيكت المثبت بإتقان على الياقة وإنتهاءً بشعور التفرد الذي يحل بي وسط أقراني في تباهٍ، كنت متأهبًا تمامًا للحصول على كافة امتيازات ذلك النسب، حتى باغتني أحدهم ذات ثرثرة بأننا محض صناعة محلية وأن الأمر لا يعدو عن كونه مسألة احتيال تجاري معتاد، لا أخفيك بأن المفاجأة قصفت مخزوني من الزهو والطموح إلى النصف.
كل ما كان يتعلق بفكرة فردوس أرضي في أحلامي: "خزانة مشرقة بإضاءة داخلية / تجفيف بالبخار / علّاقات قطن" ذهب حينها أدراج الرياح.
وبحسبة بسيطة يتضح أنه لم يتبق لي سوى القليل جدًا من شؤون الرفاهية كـ "كمفورت" و"مريتو" وخلافه.
في فترات لاحقة، وتحت الضغط النفسي المكثف جَرَّاء الصدمة، أقدمت على محاولات انتحارية عديدة باءت كلها بالفشل، كون الجانب التكتيكي فيها ضعيف جدًا ويتكىء على خيال ضحل بهذا الخصوص.
على سبيل المثال تعمدت في إحدى المرات إسقاط الزر الخامس المقابل لمنطقة السرة تمامًا، بإعتمادي أن من يرتديني له كرش بارزة ولا يمكنه تلافي عيب شاخص هكذا، دون أن أضع في حسابي الزر الاحتياطي الموجود على التيكت الداخلي.
أعي الآن أنها لا تعدو محاولة رديئة للتعبير عن غريزة حب الذات، إضافة لكونها المحاولة الأكثر غباءً على الإطلاق في إطار لفت الانتباه.

بانقضاء هذه المرحلة كنت قد تجاوزت تلك النقطة الحرجة في منحنى حياتي، هذا إذا استثنينا بالطبع حادثة الأربعاء الأسود، والذي أوشكت فيه أن أحال للتقاعد في سن أبكر بكثير من المتوقع، ونجوت بأعجوبة من أحقاد مكواة عجوز خرفة، وخرجت بوحمة لا تكاد تذكر.
لست بصدد إخبارك أنني من يومها بدأت أمارس عملي خلال دوام مسائي، وتم نقلي نهائيًا من قسم العلّاقات إلى قسم الطي. ما يعادل الإحالة إلى الأرشيف بلغة مكتبية.
لا شك في أنني بدأت أثير حنقك.
يفترض بي أن أكون أكثر لباقة وحرصًا كونك في مقتبل حياتك المهنية، هيا سأشرع في استحضار تفاصيل مبهجة كي أخفف حدة غضبك من سلوكي.
اللحظات الأكثر حميمية لي كقميص كانت تأتي عبر سلة الغسيل، نعم هو ما قرأته بالحرف، قد تخالفني الرأي وتعتبر حبل الغسيل الأفضل والأكثر حرية، كما هو مشاع، بالمناسبة أتمنى أن تقضي حياتك بعيدًا عن التورط مع منشر غسيل داخلي كل ما يجلبه صداع مزمن، ورفقة مزعجة لأجهزة تعمل بصخب.
لن نختلف، لكن لدي أسبابي الوجيهة، كما أعتقد، خذ مثلًا، سلة الغسيل هي المكان الوحيد الذي يمكنك أن تجتمع فيه مع شتى الطبقات والأعراق دون أي تفريق عنصري، أعرف هذا كوني أبيض وأتعرّض في كل عملية غسيل إلى عملية فصل حازمة لا يقبل فيها لأي ملوّن الدخول إلى معسكرنا. هذا الإجراء متبع في مرحلة النشر كذلك.
أيضًا في سلة الغسيل أنت على موعد مع احتفال صاخب بعد أن تكون قد قضيت وقتًا رتيبًا طوال اليوم.
ربما تكون قذرًا بشكل مزرٍ لكن لا يهم طالما أن الجميع كذلك، ثم إنك تكون حقيقيًا جدًا في تلك اللحظة.
في سلة الغسيل تعرفت إلى أكثر أصدقائي وفاءً، بنطال كحلي مقلم كان يعاني عقدة نقص كونه طراز منقرض يصارع كي يظل على رأس العمل، لكنه كان يملك أنصع قلب على الإطلاق.
قميص كاروهات يتمتع بحكمة هائلة ويبدو بمثابة الأب الروحي للجميع، جاكيت جينز يحظى بشعبية هائلة كونه قادرًا على أن يجعلنا نكركر في أشد أوقاتنا حلكة.
وبالطبع لا أنسى سيدة الحضور الأنثوي، البلوزة الوردية التي كانت تأتي دائمًا مجللة بعطر باذخ كافٍ لأن يثير مخيلة أكثرنا بَلادة.
بالرغم من ذلك كان طابع البراءة يطغى على محافلنا بتأثير من ملائكية بيجامات لطفل رضيع، ربما هو الآن في طور الدخول للمدرسة.
أجزم أنك الآن بصدد تغيير رأيك، بعد أن أثرت حفيظتك.
ولكن، بقي أن أخبرك شيئًا.
أنا الآن مجرد خرقة ممزقة تقطن الدرج الأخير من مطبخ، برفقة قطع أخرى جار عليها الزمن: فانيلة علّاقي، قطعة من شرشف، منشفة قديمة، نزاول مهن محرجة، قد لا تخطر لك على بال.
ومع ذلك أنا مستعد تمامًا لأن أبصم لك كل صباح بأن الحياة حلوة.
وجديرة بأن تُعاش .

"استقرت الرسالة في جيب قميص أبيض وجديد".

فُسحة بويكا

تمامًا تحت مطبخي، تكون غرفة نوم جاري، ممنوع أن يصدر مني أي صوت مزعج، ممنوع أن تحتك الصحون ببعضها، ممنوع أن تتحرك الملاعق والشوك والسكاكين كثيرًا، ممنوع أن أزيح الكرسي محدثة جلبة، ممنوع أن أفتح الثلاجة بقوة، كل شيء ممنوع عندما يعود ذلك الجار من عمله. إنه مجنون تمامًا، وفي هذه البناية يجب احترام المجانين. هذه مثلًا حكاية لا تعجبني، ذات مرة قمت بتقطيع اللحم فسمعت ضجة مرعبة تحدث تحت قدمي، عرفت أنه قد سمع صوت التقطيع، فوقف على الكرسي ودقّ السقف بعصا المكنسة، كان ذلك غير طبيعي!

منذ أكثر من سنة أعيش في هذا المكان وأتابع جنونه، وفقط اليوم التقيت به، كان خارجًا من شقته، ورأيت أكداس البريد في مدخل شقته المضاءة، وابنته الصغيرة التي لم أعرف كيف يبدو صوتها يومًا، تتبعه في صمتها المعتاد.

لم ينظر إليّ حتى، كان يجر حقيبة سفر كبيرة، ظننت أنها تخصه، وانتابتني سعادة غير مبررة فجأة، عرفت فيما بعد أنها كانت تخص ابنته الصغرى التي كانت آخر ما بقى معه من عائلته قبل أن تغادر معسكره الصارم لتطير بدورها بعيدًا. تركت المصعد له وعدت إلى البيت بسرعة، شغلت أغاني بويكا بصوتٍ عال وبدأت بجلي الصحون وخبطت الأرض بدون قلق وكأنني أحتفل بحريتي لأول مرة.

بعد مرور بضعة أيام وجدت أصحاب البناية يخلون الشقة من أثاثها وعربة مألوفة يحمل البعض إليها جسدًا ملفوفًا بعناية، كانت جثة ما، جثة على ما يبدو أن الجار المتعصب كان يمضي أيامه في رعايتها، دون أن يملك صلة ما تكفل له حق وداعها الآن مع من يحملونها! حيث فتّشت بعيني بين الجميع دون أن أرى أثرًا له.

بعد ذلك اليوم صرت أستمع بحرية إلى كل أغنيات بويكا وأستخدم السكين متى شئت، وبأملٍ يشوبه ذلك الحزن الذي أجد فيه غرابة كبيرة، كنت أرهف السمع في الكثير من الليالي إلى أرضية المطبخ كلما أصدرت ضجة ما، منتظرة أن تأتيني بعض الخبطات الغاضبة السريعة من أسفل قدمي، لكنها لم تأت مجددًا أبدًا.

كيف يموت أحدهم؟

أحدهم يقف نصف تائه، ويمسح نصف جبينه بمنديل، يتلفت حوله دون جدوى، ثم يسحب أنفاسه، يخبئها في صدره حتى يتعب، فيتركها تغادر، ثم تمر فتاة بجانب أبيها، ويلتفت إليهما، ويغتصبها بعينه فقط، ثم يستدرك ضحالة خُلُقه، ويُسقط رأسه آسفًا. يعود ليضع يده على عينه، كما لو يعتقد أنها ستنفجر كعلامة من علامات الساعة.

يجعل بينه وبين الرصيف مسافة جسدين، حيث يعتقد أنها كافية، ويمشي. يطلب منه شرطي المرور ركوب الرصيف، فيرفض، ويُكمل سيره، من أمرنا بملازمة الأرصفة؟ قوانين الحكام أم هواجس الطيبين في الأرض؟

من الممكن أن تكون لوحات فرناندو بوتيرو* لها علاقة بالتضخم الذي أصاب يده، وخصوصًا في عالم يخص أحدهم، ويستغرب لماذا يحاولون استئصالها؟ لا، أنا لست مصاب بالسرطان يا دكتور، إنها مجرد فكرة جبانة تورمت. أعرف، أنت لا تصدقني، تعتقد أنني مجنون، أليس كذلك ؟ لا يهم، حاول أن تتأكد بنفسك يا دكتور من بوتيرو شخصيًا.

في المصعد، يتذكر كم يكره الأشياء المعلقة، خوفًا من السقوط الهائل. كان يتألم، ويتخيل، أنه يسقط في داخله، آلاف المرات، الدور الثامن، الدور السابع، فالدور السادس، يتوقف المصعد، لا أحد هناك، ويستمر المصعد في النزول .

في الدور الأرضي، يغادر المصعد، وبعض من أشيائه بقيت معلقة في الدور السادس.

يفكّر أن يبتعد، إلى مكان بعيد جدًا، يقع خلف الحواس، من أجل أن يعزي جسده. إلى وقت حدوث ذلك، ربما سيفكر في العودة.

آه يا الله، كيف أهرب الآن؟ ولساني مفقود.

قرر أن يغادر جسده، وفي أثناء عودته، مات. وبقت المسألة معلقة، دون مبررات كافية أو مقدمات وافية، وربما أحدهم يعرف.

* فرناندو بوتيرو، رسام كولومبي، يصور كائناته متضخمة دائمًا.

على قيد الحب

متى بدأ بنقش جدار بيته؟ لا أحد يعلم، متى ينتهي؟ لا أحد يعلم أيضًا، هل يسكن معه أحد؟ لا.
بابه المفتوح وحقيقة عمله اليومي غير معروفة.
آخر إشاعة صدرت عنه قبل ستة أشهر أنه كان يواعد إحداهن، وأنها طلبت منه نقش الحناء على يدها قبل أن تهجره، وأنه نقل بيته إلى طرف المدينة، واستمر بنقشه على أمل عودتها.
"غبي وأخرق" هكذا يقولون. لا يغادر بيته إلا لمامًا حين ينفذ منه لون ما، فيهيم على وجهه بثوبه المشع بياضًا..ليعود بالقليل من الطعام ولون واحد لا يزيد، خشية أن يضطهد من بقية ألوان ألفت يديه.
لا ينام.
هو لا ينام، يخاف إن أغمض عينيه الخيانة من جدرانه، ونقوش جدرانه، وألوان جدرانه، وحتى نفسه !! حتى عندما مرض لم يتوقف، قال يخاف أن تعود.
قال أنها على بعد ميلين من المدينة تشم رائحة أصباغه.
قال أنها تحلم به ينقش يدها يوميًّا، وأنها سترحل حين يتوقف.
قال أنها لا زالت على قيد الحب، وهو لا زال على قيدها.
قال، وقال، وقال... حتى قلنا ليته سكت.
وبعدها سكت!
المرة الوحيدة التي سمعوا فيها صوته حين تمتم باكيًا: "كفاكِ غيابًا، عودي".
ماحيًا رسومه، معيدًا إياها من جديد في حزن.

كذبة غير بيضاء

كان دومًا يشدني من ضفيرتي، "ذيل حصاني أحيانًا لتوخى الدقة"، ثم يركض ويختبيء في المطبخ، يخفي جسده الضئيل بين أمي وصديقات أمه، وينتهز فرصة غضبي منه بأن يبكي في حضن أجمل امرأة متظاهرًا بالخوف مني.

يُبقي رأسه مدفونًا في صدرها، و يمنح أذنيه الماكرتين لثرثرات النساء ليختزل حديثهنّ، وحين يكبر، يسرده عليّ، وأعرف لماذا كان لا يأكل معنا بعدما يجهّزن السفرة فى العائلة عندما نجتمع هناك، مع أنه لو فعل ذلك لحظي بمكان قريب من امرأة جميلة يحبها وتطعمه بيديها وتتضاحك مع النسوة عليه هي أمي.

كانت أمي امرأة بسيطة، فلاحة كما تقول عن نفسها، مرحة وحنونة، وترى نفسها "عادية"، ولكن الجميع يحبونها، لم أعرف أحدًا حتى الآن لم يحب أمي، ولم ينهرها حين تقول عن نفسها بحياء: "أنا يدوب فلاحة "، ليخبرها أنها كانت أجمل الفتيات في صباها وأحبهن، ولا زالت.

لذلك لم أستغرب من هذا الفتى أن يحب أمي، ويكرهني أنا ويتعمد مضايقتي على الدوام حتى أبكي بوهن، وأعاتبه من خلف ستار من الدموع يلتمع في عينيّ الحانقتين مثلي.

لكنه بعد ذلك بسنين أخبرني بالسر.

فبعد أن كانت تنتهي النسوة من الأكل ويتركن المطبخ يعج بالفوضى وروائح البهارات والتوابل، يذهب هو ويلملم ملاعقهن بحثًا عن ملعقتى! ويدسها في جيب بنطاله وعندما تودع أمه صديقاتها وتنفرد بأمي تنهرني أمي بشدة لأبكي، لظنها بأني أضيع ملعقتي كل مرة أكون فيها عند زوجة عمي. دون أن تعرف من سرقها في كل مرة.

أخبرني ابن عمي أخيرًا لماذا كان يسرق ملعقتي في كل مرة، التي لدهشتي قال أنه كان "يلعقها" خلفي في حجرته، مارًا بلسانه فوق موضع لساني، ولماذا كان يتعمد مضايقتي حتى أبكي.

أخبرني ابن عمي أنه أحبني منذ كنت صغيرة، لأول مرة. في صباح اليوم الذي يلي يوم رفضت خطبته لي ونجوت من مضايقاته، وأهداني صفًا من الملاعق التي تعرض للضرب كلما اكتشفت أمه أحدها في جيب بنطاله لاحقًا، ليتركني كعادته، أبكي في منتهى الضيق.

اللَعنة

الأمر برمته - بالنسبة إليه - كان أحد أنواع اللعنات؛ أسرته، أصدقائه، عمله ودراسته، حياته بأكملها لعنة من نوعٍ ما.
حتى أنه ذات مساء بينما كان ينتشي دخان الحشيشة أعلى سطح منزله كما بعادته، متواريًا عن نظر أبويه؛ شعر أنه هو ذاته هذه اللعنة ! أنه هو المصدر الأول لجميع من يعاني مثل لعنته، هو الموزع الأساسي لهذه اللعنة.
استغرق بينما ينفث الدخان على شكل دوائر في الهواء الطلق: "ماذا لو أن جميع اللعنات تصدر من إنسان بعينه؟ وفي حالة موت هذا الإنسان، تموت معه لعنته ولعنة كل من يعاني مثل لعنته !"
قبّل - بشغف - حشيشته ثم وضعها جانبًا بعناية على الأرض كي لا يطأها أحد، فهو يحترم حشيشته جدًا، وفكّر مليًا: "سأقوم بما علي فعله تجاه لعنتي الخاصة، سأنتحر لأخلص العالم من تلك اللعنة التي أوزعها على البشرية" وبعد تفكير دام لبضع دقائق حول كيفية انتحاره، عدل عن رأيه وصرخ: "اللعنة على البشر جميعًا، فليتذوقوا من عذابي" وامتصّ آخر نَفس ممتع من حشيشته، وعاد للمنزل حاملًا معه لعنته التي أصبحت أكبر من السابق.

طريق العودة

ما أذكره جيدًا، عندما كنت صغيرة، كم كان أهلي يخافون عليّ كثيرًا، كنت أضيع أكثر من مرة في اليوم، بل أكثر من مرات، أضيع في الشوارع والأسواق وعلى شاطيء البحر وعند مراسي الميناء، وبين السيارات وواجهات المباني والأرصفة، وفي آخر النهار، كان الغرباء يجدونني غارقة في البكاء على الرصيف، يمسكونني من يدي الصغيرة وتتوالى أسئلتهم الحانية عني، كانوا يمنحونني الكثير من الحلوى والبرتقال كي يُسكتوا بكائي المرتجف وأظل أحكي لهم ببراءة عن اسمي وأين أسكن ومن هم أهل داري؟، غير أني حينها لم أكن أعرف اسمي ولا أعرف عني أي شيء ولا أذكر الطريق إلى داري!! كنت أتلعثم ببراءة وخوف بينما أسرد تفاصيل طفولية ساذجة أتوهم انها إجابة وافية لما يسألونني عنه ولا أدرك ما هو حقيقة.

أذكر أن الرجل الغريب الذي كان دائمًا يعرف اسمي ويعيدني لأهلي في كل مرة هو نفسه الذي التقيته في الحرب، في المرة الأولى التي رأيته بها كنت في الصف الثاني الابتدائي، يومها كنت ضائعة تمامًا في قاع المدينة، ضائعة كذبابة حمقاء سقطت في بئر واسع من الحساء حتى الغرق، حملني على كتفه كالعلم الهش الذي يعلو الأعمدة الصلبة، وسار بي واثقًا، في الطريق اشترى لي لعبة جميلة وبسكويتًا وظل يعتني بي حتى أعادني إلى أهلي.

كل يوم كنت أضيع، وكان هو نفسه من يعثر عليّ ويعيدني، كل يوم، وعندما كبرت قليلًا؛ كبر ضياعي معي، وصرت أخترع الضياع اختراعًا حتى يجدني الرجل الغريب وأراه ثم يعيدني إلى أهلي، بل حتى أجده أنا وأعود إليه قبل أن يستردني أهلي منه مجددًا، آخر مرة رأيته فيها كانت في ذروة الحرب، صرت امرأة صغيرة يافعة وأفهم في الحب، تعرفنا على بعضنا البعض من جديد وكأنني أضيع أمامه لأول مرة، رصاصة بعد رصاصة، وغارة بعد غارة، أصابتنا نار الحب قبل نار الحرب، ورغم ذلك ضياعي لم يفارقني، حتى في الحرب كنت أضيع وكان أهلي يفتشون عني، بين الركام والكتائب والأنقاض والمخابيء ويسألون أفراد المقاومة عني، حبيبي وحده هو من كان يجدني دائمًا، غير أنه توقف عن إعادتي لأهلي؛ صرت كبيرة بما يكفي، وصار من اللازم أن أتعلم كيف أعود وحدي لحيفا وأنا عامرة بالجراح، دون أن أحمل كتابًا لغسان أو يحملني غسان على كتفه.

قاتل طليق

الذي قتل والده لم يكن مجرد شخص يمكن للقضاة أن يستدعونه ليجروا معه تحقيقًا مطولًا، أنا أيضًا بوصفي ناقلًا للحادثة ومدونًا لها لا أعرف من القاتل، ولا شقيقه المصاب بمرض الذهان حين سألته كان يعرف، الذي أعرفه بعد تقصي المسألة أن الممرضة ذات الاسم الغريب أخبرته وهو عائدٌ للغرفة التي ينام بها أباه أنها رأت ظلًا ذا يدين طويلتين يدخل خلسة إلى غرفة والده، والده الذي لم يعرف القضاة، ولا هو، من قتله حتى تلك اللحظة، قالت له أن عليه أن يخبر أخوته حالًا حتى يتسنى لهم ترتيب مهام الجنازة، أخوته حين شعروا بأن قلبه سيتوقف وهو يهاتفهم ليخبرهم بما حصل، أخبروه - رغم أنه لم يعد صغيرًا - بأن والده سيعود بعد غدٍ، لكنه بدوره صدق ذلك وانتظره في الغرفة نفسها التي دخل بها الظل ذا اليدين الطويلتين وفتش أيضًا في الغرف المجاورة، ولم يجد والده بل وجد أشخاصًا ينامون على أسرّة بيضاء ويلبسون ثيابًا بيضاء ويأكلون طعامًا في صحونٍ بيضاء، كأنما يخشون أصغر نقطة حبر. قالت له عندما رأته يبكي واقفًا دون أن يسقط بعد فشل عمليات البحث المرتبكة، بأنها ستشهد معه ضد ذلك المجرم الذي فقد السيطرة على رغباته وانتزع حياة أب، وحين دعاها لتكتب شهادتها لاحقًا على الأوراق قالت بأنها لا تستطع أن تفعل ذلك لعدم منطقية ما يريد، وإنما ستكتفي بكتابة التاريخ والوقت وإحالة المسألة إلى ملفات الأرشيف.

في المقبرة وأثناء الدفن كان ينتظر أن يستفيق أباه من نومته الأخيرة، وأخوته كي يتحروا أثر القاتل الطليق، لكنهم اكتفوا بهز رؤوسهم بإذعان وتحدثوا عنه كفرد من العائلة، كما وأن ذلك الفرد له حق الزيارة متى يشاء، تلك التي تجعلهم يتهامسون حول الأمر بأنهم جميعًا بالضرورة له عائدون دون حيلة.

زاوية الإضاءة

من وقتها أنفقت الكثير، لتبقى صورته لامعة.
لأجل ماذا كانت تفعل ذلك؟ لخاطر السمعة والبرستيج؟ أم الرجاء؟ ، لكنها تعلم يقينًا أن لا أهمية لكليهما، ربما القليل من الأهمية كانت موجودة، ذلك النصيب الطبيعي الذي نحصل عليه من القرابات والصلات، الوظيفة، والمال، لكنها لم تكن تتجاوز ذلك بالتأكيد.
لمَ أجهدت نفسها لتظل تلك الصورة بهيّة؟
لأجل ماذا كانت هذه العناية المنهكة، والحرص الذي ربته حتى نمى وتعرّش وصار هوسًا يأكلها؟ لأجلها؟ أم لأجله؟ لأجل أنه كان الصورة الواقعية الوحيدة التي قاربت مثالها المنشود؟ لكن ذلك كان منذ وقت طويل، والوقت الطويل ينخر بسوسه كل شيء.
لِمَ لم يطاله الشق الذي أسقط الكثير من الصور قبله عن حائطها؟ على ناصية هذا الجبين عقدت الكثير من الآمال، على هذه الابتسامة المائلة قليلًا لليسار واللمعة التي تنم عن الذكاء في نظرته، والنقرة الخفيفة في الذقن، راكمت الكثير من الأوهام.
على هذه الصورة كانت مستعدة لانفاق المزيد، كي لا يذهب ما صُرِف من عمرها وعاطفتها سدى.
لكن بعيدًا هناك، أبعد من جوف بطنها، أبعد بكثير، حيث لا يصل الضوء، كانت تحتفظ بانعكاسات صوره السيئة، على هذه السطوح الحساسة للضوء، كان له أرشيفه الخاص، أرشيفه الذي إن استطاعت تجاهله، ما استطاعت إلغائه ومحوه، الصور التي لم تظهر بعد كانت محفوظة وجاهزة للفتك بكل ما تحاول أن تبقي عليه. الإدراك وحش في نهاية طريق، والمدرك لا يعود. تعرف أنّ أمامها القليل فقط لتقاوم، وتنزّ هذه المعرفة من مسام روحها، وترشح على السطح وتلفّها ببرودة موجعة. برودة الإدراك الأول. القليل فقط كي تكف عن إشاحة النظر، وتعترف لنفسها ـ كبداية ـ أن ما اعتقدته لمعة ذكاء تخصه هو مجرد تأثير ضوئي طارئ.

عُملات

حلمتُ بحافلة عائدة من بلاد الشام، كنت قادرة على تمييز بعض من ركابها، دون أن أعرف آليتي في ذلك.
كان هناكَ تلك المرأة التي تتشابك أصابعها مع أصابع زوجها قبل أن تهيل على طفلها بالقبلات، ثم تهرول بعيدًا عنهما، تصعد للحافلة ولا تنظر إلى الوراء، سحبتُ أغراضي وأخليتُ لها المقعد، التصق وجهي بالنافذة، كدتُ أرى يد طفلها المرتعشة وهي تلوّح لها بضعف مثل رعشة الزهور في أول أيام الخريف. قبل أن تهرول مجددًا للخارج وتحمله مرتعبة.
كانت المسافة بيني وبين المرأة قصيرة جدًا، مسافة حقيبة يد ودموعٍ تكابد الكتمان، لمحتُ في عينيها بريقًا خائفًا يتموّج وينطفئ فجأة. أعطيتُ السائق أجرته قبل منتصف الطريق، إلا أنه أعاد النقود إليَّ وقال: "تلك النقود غير صالحة"، دُهشتُ وقلت "كيف؟! هذه نقود حقيقية طبعًا"، قال "مرّ عليها سنة، لقد تغيّرت العملة الآن". قفزَت إليّ الأفكار سريعًا قبل أن أتفوّه معه بكلمة، تساءلت "هل غبتُ عن زمن المدينة لدرجة أن العملة تغيّرت وأنا لا أعرف؟" حسنًا، سوف أنتظر دفع أجرته بعد أن تدفع السيدة إلى جانبي.
وصلنا معبر رفح والمرأة لم تدفع الأجرة بعد. وتوقفت الحافلة، لكني لم أنزل، كنت في حيرة من أمري، العملة التي بحوزتي مختلفة عن عملة المدينة، أو ربما عن عملة هذا السائق فقط؟ و من يدري؟! لماذا إذن لم تدفع جارتي الأجرة بدورها؟ ربما هي في حيرة مثلي؟ نظرتُ إليها بتعجب، التقت عيوننا مع بعضها، لم نتكلم، حركت كفها في الهواء الموازي لصدرها بمعنى "لا شيء"، فحرّكت حاجبيّ إلى الأعلى في ذهول صاعق !! قالت المرأة بعد صمت الذهول: "لا يمكننا ترك السائق بدون أجرة"، قلت: "وما العمل، المعبر مفتوح أمامنا وتلك هي الساعة الأخيرة من مدّة فتحهِ لليوم !"، كان كل ما يلزمنا بعض العملات الجديدة تكفي ثمن أجرة العربة وعبور الحاجز، أجرة الطريق التي ستخرجنا من فوهة الموت الشرهة لأى مكان ننعم فيه بهواء خال من أدخنة الأسلحة، ثم ما لبت أن ضاق الرجل بنا ونهرنا نحو الخارج: "لا أحد يصعد مجددًا من دون أجرة كاملة"، ولأنها خافت على طفلها من الموت جوعًا هنا، قالت: "لنعود من حيث أتينا".
أعتقد أنها فضلت أن تعود من حيث أتت علها تجد حول أنقاض بيتها بعض فتات الخبز وتبحث لطفلها عن بعض الماء يكفى طاقته الصغيرة، على أن تصبر هي!
في رحلتها للعودة تعرضت الحافلة لحادث مروع، ويبدو أنه لم ينج أحد منه، عداي، تطلعت حولي لأبصر جسد رفيقتي مسجى على طفلها وهي غارقة فى دمائها، ماتت وهي تحاول حمايته لآخر لحظة، غير أنها لم تملك أجرة النجاة من الموت.

أثرٌ رجعي

دخلت أمي وأغلقت الباب خلفها، على بعد خمس خطوات تفصل بيننا قُلت لها:
- آسف جدًا، حدثيني عن أي شيء الآن إلا أنا!
قالت لي، بصبر تكرر استهلاكه:
- الصلاة أُقيمت.
وضعت إبهامي بين حاجبيّ أضغط رأسي برفق عندها أغلقت عينيّ باستغراب، إنه يوم الجمعة إذن، مؤخرًا صرت أفتقر إلى أدنى شعور بمرور الوقت والأحداث من حولي، كيف وأنا حتى الآن لم أعمل لأرى الشوارع بإنتظام صباحًا كما يفعل بقية الناس وأرتب النهارات والتواريخ ؟ لم يكن حزن أو يأس بقدر ما هي دهشة حضرت الآن مما وصلت إليه! ليته كان يأسًا حتى يضع لإنتظاري نهاية، إن عباس لا يترك لي فرصة لليأس أبدًا. يتصل بي كل شهر خصيصًا ليخبرني عن فرصة عمل جديدة معهم، ويطلب مني أن أستعد، ثم لا يعاود الإتصال مجددًا لزمن، قبل أن يحين وقت إعلانه لفرصة أخرى معتذرًا عن القديمة في كل مرة.
عندما كنت شابًا يافعًا لم أحلم لنفسي بقدر أحلامهم وتوقعاتهم لي، لم أتوقع أن ممرات الجامعة ستبقى المكان الأخير من ذاكرة الصباح التي أجد لي دورًا بها، لم آبه لكلمة مقبول في السطر الأخير من شهادتي حتى الآن.
كُنت أتوقع أن أكون هناك معهم، أنتشل الآخرين إلى جانبي كما يحاول عباس انتشالي، أو يصطنع الأمر على ما يبدو، وبالتفاتة صغيرة أصبحت هنا وحدي.
كانت السنوات الخمس وحدها كفيلة بوضع أصابعي كافة أمام وجهي لدفنه وليس أبهامي كما فعلت للتو!
كانت الساعة الثالثة عصرًا بتوقيت طوكيو لدى عباس، الثامنة صباحًا هنا بتوقيتي، تشوبني حالة غثيان من طعم التوقيت.
لم أعد أخجل من تصفيقي الحار عندما أقوم بإعادة إنتاج فيلم من الذاكرة، عن إخباره لي بفرصة نجاة من جديد، وكيف يحيك قصته في كل مرة بعناية، عامدًا على محو فكرة اليأس من رأسي إطلاقًا، وواقفًا بيني وبين تغيير رأيي أو تحويل أفكاري، وكأنه يتلذذ بتشتيت انتباهي عن أي شيء وتعليق رأسي وأحلامي وأملي معه كالميدالية التي يقذفها بين أصابعه ويذهب بها أينما شاء.
ولم أعد أعي كيف أطلب رقم هاتفي نفسه في ساعة متأخرة من الليل وأجده لحسن الحظ دائمًا مشغول، حينما تعتريني حالة من الوهم فأتخيل أنني سأتحدث معي لأفهم! لم أعد أعي لماذا الوطن، لماذا المقهى، لماذا الرصيف، ولماذا المفاتيح التي بحوزتي!

في مساء يوم معتاد، بعد الساعة السابعة والنصف بقليل، طلبت نفس الرقم ولم يكن مشغولًا كالعادة، كان يعطي جرسًا طويلًا لا إجابة عليه! كيف؟!
تذكر أنه في صباح نفس اليوم، فإن الشخص الذي أتصل به كان قد خرج إلى الشارع، ركب سيارة والده، بينما يحتضن سكينًا قد تمكن من سرقتها من مطبخ أمه في الليلة السابقة.
كان الهدوء لا يزال يغلف الشوارع والأحياء بينما يستمع إلى إذاعة القرآن وهو في طريقه إلى صديق له في الحي المجاور. عباس، نعم عباس، ها قد عاد أخيرًا من رحلته لقضاء أجازة قصيرة بعد خمس سنوات من الغياب والوعود المتتالية التي كان يبعث له بها فتكبّل روحه كالأصفاد عن بعد.
عندما وصل منزل صديقه، طرق الباب بإصرار لمرات متتالية، عندئذٍ، سمع صوت الأب يقول:
- من هُناك؟
ردّ بتلعثم مصطنع:
- أُريد أن أتحدث مع عبّاس في أمر مهم.
فتح عبّاس الباب وهو قلق ومرتبك من وقت الزيارة، لكنه ذهل حينما وقع بصره على صديقه الذي لم يره من مدة طويلة وقال:
- أهلًا وسهلًا، تفضل.
فقال له:
- لا، أنا على عجلة من أمري، لو تسمح بأن أخبرك هنا فالوقت لا يسمح.
تقدم عباس عند الباب.
فجأة، شاهد السكين وهي في طريقها إلى بطنه، وعيناه لا تصدّق ما يحدث.
وهذا ينظر إليه وهو يبتسم وينزعها ببطء من بطنه ويقول :
- هل تشعر بسكرات الموت؟ أنا عشت بسببك هذه السكرات ألف مرة!
كان عبّاس ينزف ويصرخ من شدة الألم بينما هو يجتاز الطريق ركضًا.
عاد إلى المنزل وثوبه مخضّب بالدماء والسكين لا يزال يقبض عليها بشدة، حينها تذكر أنه في غمرة تسرعه نسي هاتفه في سيارة والده هناك.
عندما رأته أمه عائدًا فزعت من المنظر، وهرعت إليه وهي تبكي:
- ما الذي حدث لك يا بني؟!
قال لها:
- قتلته يا أمي.
صرخت:
- من هو ذا يا مجنون؟
أخبرها:
- المسيخ الدجال!

دمٌ طازج

يسير مستدفئًا ببذلته الثقيلة التي لا تستطيع حمايته من قشعريرة تتغلغل في سلسلة ظهره، ويُسرُّ لنفسه: "الحمد لله هذه آخر زنزانة"، يضع رقم شفرته للدخول ويتناول وعاء الطعام البارد، يحجز الباب بالعربة الفارغة ويدخل ليصطدم برائحةٍ قويةٍ غريبة، لها ما يشبه الألفة في ذاكرته، تشق عيناه طريقها في العتمة ويلمح السجين مكومًا في الزاوية اليسرى من الزنزانة، ثم يلتفت بغتة حين سمع صوت انزلاق العربة وإقفال الباب، يُسقط الإناء مُسرعًا ليحجز الباب المعدني الثقيل، فلا يستجيب الباب.

ينظر خلال فتحة الباب الضيقة محاولًا أن ينادي أحدًا ليفتح له، هذا وقت العشاء وهو المناوب لتوزيعه، الضابط في المبنى الآخر وليس له إلا الإنتظار، جلس على الدكة الحجرية يائسًا، ثم تنبه لأنه الآن سجين مع هذا الذي لا يعرف ما تهمته، زاره خوف مرتاب فتفقد سلاحه ومسح بيده عليه بينما هو يحدق في السجين الذي يبدو أنه لا يشعر به تمامًا، بلا أدنى كلمة، أسند رأسه للجدار، وأخذ يراقب تشكلات سحاب متكثف خارج كوةٍ في أعلى الجدار، ثم قرر أن يصعد على الدكة، عله يرى من يُطلق أسره، فوجدها أعلى منه بكثير، فجلس يتنشق هواء الليل مرغمًا، وأقنع نفسه أن أحدًا سيفتقده ويأتي للبحث عنه لا بُد، استدار بشدة عند سماعه صوتًا مبهمًا كالأنين يصدر من الأسير، فقرر أن يُخاطبه.

-ما تهمتك؟

لم يرد، حدق في عينيه المتعبتين، وجهه الكامد، لحيته النابتة، لم يشعر بأي ارتياح، أكان لا بُد له أن يقبل نقله للعمل هنا، وكأنما بيده الخيار! إن نظرات هؤلاء المساجين مختلفة عن ما عهده، انهم يبتسمون له بتسامح ويترفعون عن الشكوى، تمنى لو أنه يفهم شيئًا ما، ثم قرر أن يحاول ثانية.

-يبدو أننا سنقضي الليل معًا هنا، فأقترح فقط أن نتحدث لنقطع الوقت.

- اسمي مصطفى.

- اسمي العريف رشوان.

وعاد مصطفى للزاوية بهدوء دون أن يلمس طعامه، فسأله العريف:

- ألن تأكل؟!

- بإمكانك أن تأكله أنت يا سيدي.

شعر بالحنق، أيعتقد هذا المسكين أنني أتوق لطعامه البارد، ماذا به؟ أيتظاهر بالنوم؟ وأخذ يراقبه، فإذا بالسجين ينكأ جرحًا في معصمه، انقبضت معدة العريف بشدة، ثم أخذ مصطفى

يغمس عودًا خشبيًا في الدم ويكتب في الزاوية اليسرى حيث وجده متكومًا حين فتح الباب للمرة الأولى، لم يحتمل أكثر ففتح عينيه على اتساعهما وصرخ به:

- ماذا تفعل يا رجل بحق الله؟!

- أكتب.

- ماذا تكتب؟!

- قصيدة.

- بدمك؟

- منعوا عني القلم، ولا بد أن أكتب.

- لم لا بد أن تكتب؟!

لم يجبه، نظر إليه قليلًا ثم أصدر ذاك الأنين الخافت الغير مفهوم، وغمس العود بدمه ثانيةً.

عرف الآن الرائحة، هكذا حدّث العريف نفسه، إنها رائحة الدم الطازج، والرطوبة الباردة.

يا لهذا الشعور، لقد بدأ يختنق هنا، هذا الباب اللعين كيف أنغلق عليه؟ أخذ يلوم غبائه، ثم بدأ بلوم حظه، فكر في زوجته، تخيل لو أنه مكان هذا المعتوه الذي يكتب قصائد بدمه، فكر في ابنته، أحس بأنفاسه تتقطع وأخذ يغيب عن العالم تدريجيًا.

كأنما كان قد غفى حينما سمع اسمه، فتح عينيه بسرعة فلمح رئيسه واقفًا بالباب، ناداه فهب واقفًا، تلفت الرئيس ومصطفى مكومٌ في الزاوية اليسرى من عتمة الزنزانة.

-هل آذاك يا رشوان؟

-لا يا سيدي، لم يفعل.

ترك الرئيس الباب مُشرعًا ليلحق به رشوان مبررًا ما حدث بصوتٍ بدأ يتخافت، ونظر الأخير مليًا إلى مصطفى قبل أن يُسقط قلمًا مملوءً بالحبر من جيبه سريعًا ليستقر بجوار الرجل.

كواليس

لا أعرف.
أهذه عازفة أم إله.
تلك المرأة بقميصها الأبيض الناعم، أعني المرأة البسيطة جدًا بقميصها الأبيض، وهي تجلس بين جدارين تخلع عنهما الإضاءة قميصهما، حين تفتح فمها وهي تضغط على رقبة الآلة تشعر كأنها تطعم الذاهبين إلى القيامة.
لا يمكن أن يتخيّل شخص كامل القوى أن هناك امرأة أبسط منها ولا أكثر ابتسامة منها ولا أحب إلى القماش منها ولا..... أشياء كثيرة حلوة أيضًا.
انتهت الآن و حزِنت كعادتي، قبل أن يتابعها الـ "كاميرا مان" وقد بدّلت القطعتين ـ القميص الأبيض والبنطلون القطني الفضفاض ـ بفستان قصير ومشجّر.
التفتت إليه وقالت كلمتين فرنسيتين تعنيان "الوداع" وهي ترافق عازفة أخرى في ممرّ حجريّ.
هذه المرأة التي عزفت ليلتها كانت تُصلِح للجالسين على الحافة في انتظار العدَم أزرار قمصانهم بالضبط بعد أن أنهت تفسيرها للوجود، بينما هي كانت تحمل معها جثتها من جناية أحدهم داخلها.
الآن هي جالسة على عتبة دارها، تضع قبضة يدها تحت ذقنها مثل المتسولين أو العجائز اللاتي ينتظرن الموت بطريقة أو أخرى، وبرحابة من لا يملك من الأمر شيء، يمرّ جارها عليها، يلقي تحية الصباح بمكر، وقبل أن يبتعد عنها قليلًا يعود مترددًا إليها، يحدق في وجهها وجسدها بعينين يملؤهما الذهول وفمه نصف فاغر، تتقلص خطوط وجهها التي ارتسمت مبكرًا عن الموعد، تبدو تمامًا كامرأة مسّها الجنون يلاحقها الصغار بالضحكات ويرشقونها بالحجارة، لا ليس ارتباكها الآن من جارها الذي عرف بمصيبتها، بل من زوجته التي تراقبهما من شباك غرفتها، ربما تقول الآن في نفسها: "وأخيرًا انكشفت ألاعيبك يا خائن".
يرفع جارها عينيه إلى حيث يتجه نظرها، يلمح زوجته ويتمتم بملل: "حمقاء، كلكنّ واحدة في الحماقة".
يستعيد حالته البدائية التي كان عليها قبل رؤيتها، تضيق عيناه وتصبحا بحجم حبة الزيتون، ثم يسير إلى نهاية الطريق ويبتلعه ضباب الصباح الباكر. يتركها مع مصيبتها التي أهداها إياها أحدهم، خلف الكواليس، بينما كانت تعزف لآخرين، تضع قميص حفلاتها الموسيقية على المسرح، وتسلب العقل جهرًا، سلبها هو كل شيء سرًا. النطفة انبثقت في رحمها وانتهى الأمر، لقد اكتشفها الطبيب وعرف سرّها، وحدهم الأطباء طيبون كالأصداف والآبار، صامتون كمصيبة ملعونة!
لا لن يكون الجيران أبدًا بهذه الطيبة والمغفرة، والصمت.

حواسٌ صامتة

مرت الدقائق القصيرة كدهر طويل، وهو يرسم الصور في مخيلته لما سيحدث بعد ساعات تحت الأرض في تلك المساحة، سيطبع النمل بحوافره خطوطًا متفرعة في جسده الصغير، والذباب يتدافع بجنون على وجهه، وعنكبوت يتأرجح بخيوط عالقة بسقف التربة، وربما صندوق صغير غُرست في أطرافه مسامير، كأنه غُمِس في حوض من الدماء والعفن، سجائر منطفئة في المنتصف أُلقيت بمزاج خائب على تراب الأرض فوقه، تعرف عليها لاحقًا أنها ليائسين مثله مروا من هنا مرارًا، وحواس تمزقت وتعطلت ببراعة عن العمل في جثة مُنتفخة بعض الشيء، أنف طمس بصورة غريبة قبل أن يتسنى له النمو، في إحدى حدقتا عينيه انتصب غيم قديم، ويده اليمنى يتدلى منها مفصل الكف باستكانة وشجاعة من يلوح في وهن، ضمير غائب عن المكان وعن الصفحات التي لم يتسن كتابة شيء فيها.

الأوامر بعضها قاتل، وخصوصًا تلك التي يصدرها القدر لرغبته في التعديل على نصوصه، والأحلام المقصوصة من عمر أحدهم، وكأنها عتمة مؤدية لكابوس آخر، وخصام الحواس مع بعضها يحدث ضجة عنيفة في دماء من ينتظر منها العمل، التأملات غير مجدية بالمرة الآن، وعليه التوقف عن التخيل وتهدئة حواسه، طالما الحواس ذاتها تموت من أجل حقوق التغيير المفاجيء في النص فقط، التفكير الهادىء فُصل بتفوق عن لحظة انفعال كهذه.

ما المعنى إذا كانت الحواس صامتة أصلًا قبل موتها، وما الفائدة من أن تعيش متاهة السلب المباح مع حياتك.

لم يحتمل أكثر، دفع الباب بقوة، وقال لهم بحنق: "ادفنوه وبسرعة".

تسللت وشوشاتهم من وراء الباب "مات !". طأطأت الممرضة رأسها دون أن تنبس ببنت شفة، بينما قال الطبيب: "العمر لك".

بكى الرجل رغمًا عنه ونزع الغطاء الأبيض عن بطن زوجته، بان رحمها مثل كفن مغلق، كان الوليد جثة حارة، عيونه مفتوحة كبحر، لونها صافٍ، وفمه يبتسم، لكنه أبدًا لم يصرخ أو يتحرك.

خطوات لعينة

أن تُسلم رأسك للمخدة وعينيك للرقاد وتحت وسادتك يقبع كتاب "المسخ" لكافكا هو أمرٌ بالغ الصعوبة بل قد يصل حد الإستحالة!

ما يجعلك تفكر حول تشبث الحشرة غريغور بإنسانيته الذي دفع العائلة للانزعاج والعنف حتى أخته التي كانت حريصة على طعامه، الأب الذي حاول أكثر من مرة سحقه ونسي غريغور الشاب الذي طحن نفسه في عملٍ كريه لأجل راحته، فيما عدا أمه التي بقيت محايدة، لم تنس أنه غريغور.

النفس البشرية لا يمكنك أن تخمن كيف تفكر أو تتوقع كيف تفكر، هل تفكر بطريقة المبدأ الفيزيائي " لكل فعل ردة فعل مساوية له في المقدار معاكسة لها في الإتجاه "؟.. فمثلا، لا يوجد إحصاء دقيق حول العالم يشرح كيف يسير المرء وراء هوسه. وهذا قد يفسر ما حدث مع صاحبنا ذلك النهار.

بدأ النهار حين دخل شارع الحرية لشيءٍ ما ونسيه، لكنه رآها أمامه بحذائها المعكوس وأصبح يفكر فيها بغرابة، فجأة إمتد إنزعاجه من حذائها حدًا لا يطاق وأصبح يسير خلفها في أروقة الشوارع الجانبية وهمه الأوحد والأخير أن يصل لطريقة يعدل فيها من وضع حذائها الذي يثير أعصابه. وكأنما تلك المهمة هي المهمة الأخيرة في حياته. يستكمل خطواته بقفزات واسعة وأمامه تسير المرأة بشالها الملفوف حول رقبتها، تتهادى في خطواتها وخصلات شعرها المنساب تصب كماء علي ظهرها، تتأرجح مؤخرتها النحيلة المشدودة تأرجحًا يبدو مدروسًا لشدة تناسقه، ويكاد يصرخ داخله كيف تتمكن من السير بثقة هكذا بهذين النعلين المقلوبين؟ يجز على أسنانه ويجد في المشي ورائها. لكنها تغوص داخل الشارع التجاري. الطقس حار وخانق وتلك اللعينة تمشي أمامه بنعلين متنافرين بكل الثقة الممكنة لامرأة في غنجها، تتأرجح الشتائم في عنقه ويستطعم ريقه المر العطشان، ويزدرد عطشه ولا يستطيع بلع حنقه من المرأة التي تمشي بثقة بهذين النعلين بل تتوقف أمام محل إكسسورات وتجرب الخواتم والأساور وتنتقي الخلاخيل وتقلبها بين يديها بتأنٍ. يدعو الله أن تجرب خلخالًا وتخلع حذائها لتنتهي هذه المعاناة. سيصرخ قبل أن ترتدي الخلخال ويقول لصاحب الكشك نصف السكران أن نعليها معكوسان ويجب أن تعدلهما فورًا. لكنها ترمي الخلاخيل بعصبية وتبصق على الرجل بشتيمة ما، لقد لمس يدها. في الحقيقة أجده ليس ملومًا بالمرة. فبلا ريب أن رسغيها ليّنان بَضّان كمنظر كاحليها من الخلف. اللعنة على هذه المرأة، لماذا أتت في طريقي هذا اليوم؟ تصعد سلالم تلة الشارع التجاري وترفع تنورتها البنفسجية الطويلة لتتضح ساقاها المشدودتان الممتلئتان باتساق مذهل وبض وشهي، لكنه لايستطيع أن يوقف مخه للتفكير الكافي في هاتين الساقين الجميلتين. إن حذائها مقلوب! تقترب

من مقدمة الشارع، شعاع الشمس المهدد بالمغيب يرمي إنذارًا أخيرًا ويشوش نظري ونظرها فيما هي ترفع يدها اليسرى أمام عينيها وألمح إلتماع الذهب في بنصرها، مرتبطة إذن ! اللعنة عليها وعلى حبيبها الغبي الذي يعشق إمرأة ترتدي الحذائين معكوسين. لابد أن قدمها اليسرى تماثل اليمنى واليمنى تماثل اليسرى ليصلح استمرار هذا الوضع! كيف يمكن أن يصير ذلك! لاريب أنها مخلوق شيطاني متحور في هيئة امرأة بذلك الجمال، أو كائن فضائي متنكر بشكل فتاة لا يعرف بطبعه الفرق بين الفردة اليمنى واليسرى للآدميين! تسري رعدة غريبة فيّ، تشبه إهتزاز الشرارات الكهربية وأحس بها حتى في أظافري، ويستحيل ريقي لكتلة يابسة كالعلقم والفتاة تروح وتجيء وتقهقه وهي تتكلم في الهاتف النقال، وترمقني بخبث وتشكك. هذه الوقحة الوضيعة، لقد دمرت يومي كله! أحملها الذنب كاملًا، فلولا نعليها المعكوسان في استفزاز معلن لما جرني هوسي إلى ملاحقتها على ذلك النحو المحرج، فكرت أن أقترب منها وأخبرها أن تكف عن الثرثرة في الهاتف وأن تدخر الغنج والقهقهة للحظات وتعدل من وضع حذائها، إلا أن الرعدة تزداد شدتها كلما اقتربت، أتذكر وجود سيجارة في جيب القميص الأمامي وأشعلها، والرعدة لا تفارق أصابعي الممسكة بالسيجار ولا شفتي النافثتان الدخان بقوة ظاهرية. فيما ترتعد مفاصلي ومعدتي، وأحس قلبي يرتعد إرتعادًا جنونيًا بسبب عشوائية تلك البغيضة. أحسم أمري مرة أخيرة وأتقدم منها وفي نفس اللحظة تتوقف سيارة ملاكي رخيصة، ملطخة بالأوساخ وينزل منها شاب أسمر يفوقني ب 20 سنتيمترًا في الطول على الأقل، وتكلمه الفتاة وهي تشير وتنظر إلي، اللعينة، إنها تنصب لي فخًا طوال الطريق، وقبل أن يندفع والشرر يتطاير من عينيه أواصل خطواتي المهزوزة كمومياء نحوهما وأهمس كغراب حيث أن جفاف حنجرتي وصل حده الأقصى، فأشير له ويدي تتردد بالهواء فيما هو يتقدم والسباب يتطاير من فمه، وبينما يقول: "ماذا تريد منها يا ابن الكلب؟". أفلح في إخراج صوتٍ غريب له طعم الحديد الصدئ: "إن حذائاها معكوسان" وأشير لأقدامها ليلتفت مشدوهًا لرؤية قدميها أخيرًا، ثم يعاود النظر لي. أما أنا فلم أعلم بعد ذلك سوى عن الدم المتدفق في فمي، والسماء السوداء المشتعلة بألف نجمة ساقطة في عيني، وصوت عظامي وهي تصطدم بالرصيف أثر قبضاته المتلاحقة تختلط بتضرعاتها الحنون ليتوقف، اللعينة اللعوب، لو أنها تشفق عليّ بحق فلتخلع الآن حذائيها وتصلح جريمتها فورًا.

عملٌ رديء

كل يوم كنت أمضيه بصحبة جدار رطب قديم، في نهاية سقفه من الأعلى مساحة صغيرة وغربان لا تهدأ من الحركة بالخارج كعادتها السيئة في انتظار موت جديد قادم، وفي نهاية اليوم، كلما همّ أحدهم بمغادرة المستشفى، تمنيت لو أكون أي شيء يُدس في حقائبهم، كفرشاة أسنان، أو أن أطوى بين البيجامات، وأتنقل معهم إلى حيث تأخذني أقدامهم.

فقد ضجرت من حياتي المكممة بين غرف قميئة أَلِفَت جدرانها ضجر روحي، وترحالي بين المرضى والأوبئة، أُعطِ هذا دواءه مُوقّعًا ببسمة تندلق من شفتايَ كالسم - دون أن يعلم أحدهم بذلك - وآخر أقيس ضغطه، لأتأكد من أنه طبيعي، بينما أنا التي في حالة غير طبيعية هنا، حالة هستيريا ترتفع وتهبط كالترمومتر، أكثر من الحرارة التي تعتريهم.

في السرير المحاذي للنافذة، يرتمي رجل أُصيب بالعمى منذ قرابة الأسبوعين. تعيّن عليّ أن أكون ممرضته وتحت خدمته أربعَ وعشرين ساعة - بالتمام و الكمال - وهذا اليوم الأول لخدمتي إياه إلى أن يحين خروجه مُعافًا!

هذا مثلًا، لا أعرف كيف أتعامل معه؟! مُضرب عن الطعام والشراب والحديث! وكلما قسوتُ عليه وألقمته الخبز، سارع بنزع أنبوب المحلول من وريده، وصرخ، فتتناثر قطرات الدم على الشراشف البيضاء كجريمة على عاتقي، فيهرول الزوّار المجاورين لتهدئته، وتثبيته في مكانه، إلى أن يستعجل أحد الأطباء ويُعطِهِ إبرة مخدّر منقذة لأعصابي.

في الساعات الأولى من اليوم الأول معه، هكذا ! فكيف يكون غدًا، وبعد غد؟ ماذا عن كل هذا الضجر والنفور الثائر بي؟! كيف سأحتمل أكثر مما احتملت؛ لأجل استمرارية الحياة والشؤم في مستشفى أمراض نفسية؟!

في الليل أخيرًا نام، ونامَ الجميع، بينما بقيت مُتخشّبة على الكرسي بجانب سريره، أسترق النظر إلى قطعة السماء المربعة التي هي الحيلة الوحيدة للنجاة المتوفرة من نافذة مسيّجة بالحديد الصلب. تذكرت أن الرجل لم يُفرغ أغراضه من الحقيبة، أفرغتها في صندوق منسي تحت السرير، كانت بيجامة زرقاء بلون عينيه، ونظارة سوداء، ونوتة صغيرة، فتحتها فقرأت: "نحن الذين نسير لا ذكرى لنا، لا حلم، لا أشواق تشرق، لا منى*"!

لا أريد أكثر ولا أقل، فقط خروجي من تلك المستشفى بملابسَ تلائم امرأة في أواخر عشرينيّاتها، ناعمة، أنيقة التفاصيل، يكفي لأن أكون حقًا قد نجيت من تجاعيد الزمن المتراصة هنا.

"نودّ لو متنا فترفضنا القبور."

أي رجل أعمى يقرأ هذا الحزن والموت دون عين؟!

– ماء ..ما ..ماء.

صعقني بلهاثه المفاجئ، فوضعت فم الإبريق في فمه؛ بعد أن كدت أسقط في عظام ركبتاي، لكنه وكزني دون قصد فانسكب الماء على قميصه وزي عملي، التزمت السكون، كانت أعصابه ترتجف، شبه منهارة، شراييه الدقيقة منشدّة بشكل مريع، وبعد دقائق ارتخى كالسكران وارتمى رأسه على الوسادة.

فككتُ أزرار قميصه دون أن يغضب أو يقترف شيئًا من جنونه، بانَ صدره، كان كثيف الشعر الممزوج بالشيب، عند رئته اليمنى جرح بسيط، والجلد المغلف لقلبه يرتفع ويقع باضطراب نبضاته، "يكاد التمزق".

أجهل لماذا سألته عن اسمه!

قال وقد خُيّل إليّ وكأن صوته ليس له: أحمد كريم.

غير أنه في منتصف تلك الليلة؛ تغير بالمرة، تحوّل إلى رجل مُطيع ! قالَ أنه من مدينة أخرى، أفقد بصره رصاص طائش من بنادق المحتل، وبالمجيء إلى غزة أراد الاغتسال من ليل مدينته، فإذا به يغتسل بليل غزة، ليل على الأقل لم يُفقده بصره، "!"، وعن حالته النفسية، أخبرني أن ما هي إلا هروب وهمي من عالم ما وراء أسوار المستشفى وخلف قضبانها.

- الحياة خارج المستشفى ليس لها رائحة المعقمات التي تخنقك، بل رائحتها ملوثة تمامًا، صدقيني، ابقِ بنقائكِ ولقمة عيشكِ هنا.

- لكنني سأصاب بحالة نفسية هنا، سأغرق في طوفان من العقد إن بقيت أعمل ممرضة وسط كل هذا الموت البطيء.

- أخبريني إذن، لماذا؟!

- الجرحى يجرحونني معهم، أسمع أصواتًا مخيفة تصدر عن المرضى والمعقدين.

- إذا سأخبرك أن ذلك أفضل، أفضل من أن تسمعي أصوات النعاة ترتفع حولك أينما ذهبتِ، أفضل من أن تتشردي بين الجثث وأصوات أكبر من صوت البكم، وأن ترين ما تتصالحين مع العمى بعده.

في آخر المطاف استطعت بصعوبة انتشال نفسي من تلك الغيبوبة العفنة، وخرجت للهواء الذي كنت أتسوله من فتحة النافذة، خرجت لأجلس كما أجلس الآن، وأخيرًا، بين "الطبيعيين" والاعتياديين من البشر، يحيط بي جمع لا بأس به في هذه اللحظة بذاتها، غير أنهم، جميعًا، يتشحون بذلك السواد الذي كنت أراه وأخافه كلما نعقت الغربان حول ذلك المستشفى الكئيب. بينما تتوالى وترتفع أصوات النعاة، وأودع الأرواح، الجثث، التي ذهبت للحرب، ولم تعد منها واحدة.

وكلما هم أحدهم بمغادرة المجلس، أفكر بعيدًا عن هذا المكان، بنفس الضجر القديم الذي عرفته لسنوات مضت، ضجر أضيف له الحزن والخسارة، وأتمنى لو أن أحد العابرين يدسّني في حقيبته، كفرشاة أسنان، يحملني كشرشف مطوي، ويضعني على أحد أسرة المستشفى مجددًا، لأرتمي تحت قدمي أقرب مصاب وأقدم له رعايتي وابتسامتي، من دون أي سم عالق بها.

* مقتطفات لِـ نازك الملائكة

بلا وطن

"كيف شعرت كأننى أنظر من ذات النافذة؟!"

عبرنى بخفة شديدة صوت عصفور نافذتى الذى مرق للتو بجانبي، قبل أن يطغى عليه صوت خطوات أمي الهادئة طوال الردهة المؤدية من باب حجرتي الى النافذة.
كنت أقف بهدوء مثالي، أكثر ميلًا للبرود ربما، أستمع لخطواتها وأداعب طرف العصفور بتأنٍ شديد لا يخلو من مسحة الشرود ماسحة بنظراتي كل شيء دون أن أرى شيء.
حتى شعرت بأيدي دافئة تحيط باحدى كتفيّ وتربت على الآخر باليد الأخرى.
لا اعرف حتى كيف حدث هذا!
ربما هي هوائيتي أو تقلباتي المزاجية المعتادة والتي تتألق في الصباحات بصورة أكثر وضوحًا، ربما حنان أمي الذي شجعني بقوة، وربما هو ذاك الحلم، نعم كان هو، ما جعلني أفيق من شرودي وأسترد وعيي بالحاضر فجأة بين ذراعيّ أمي، بعد لحظات طويلة كل ما أعرفه عنها أن لمحت خلالها فتاة تشبهني تمامًا فى انعكاسى بالمرآة تجهش بالبكاء الجارف بين ذراعيّ أمها ونصف جسدها النحيل ممدد على الفراش بوهن.
كان جسدي يشعرنى بالتلاشي منه ببطء مع هذا الوهن الشديد وأنا أقص على أمي ما رأيت بحلمي ذاك الصباح.
أخبرتها بشرود كيف كنت أعبر جانبيّ الشارع على الخريطة، نعم، لم أكن على أرض بقعة ما بل كنت أعبر جانبيّ خريطة، كنت كمشاهدة من خلف شاشة تحرك أفكارها كل الأجساد بهدوء، أو كلاعب شطرنج بلا أعصاب يحرك القطع من مربع لآخر بخفة لا يشغلها شيء سوى الفوز دون اعتبارات، ومع ذلك كنت متورطة بشكل ما في الأمر، وأشارك بدوري في تجسيد وجودي كقطعة والرضوخ لقراري كلاعب، كان كل ذلك يمثل المشهد العام للحظة التي حركَت إرادتي فيها القطعة التي تمثل أخي هناك على الخريطة لتضعها فى منتصف خط العبور تمامًا بين جانبيها، لم يكن جانبيّ الخريطة سوى عالمين.
رحلت أنا للآخر.
لا أعرف كيف حدث الأمر على هذه الصورة ولكن ما دهس أخي بعد ذلك لم يكن سيارة أو حافلة أو دراجة حتى، كانت الرياح!، وانتفض جسد أخي الهزيل بين جانبيّ الخريطة حين كانت تخرج منه عاصفة صغيرة ظننتها فى البداية روحه، لم تكن روح أخي، بل كانت وطنه!
علق أخى بالحياة، لكن بلا وطن.
كان كل ما فعلته بعد ذلك أن منحت أخي صندوقًا صغيرًا وربتت على قلبه بحنان واختفيت!

هدأت أمي من روعي لتخبرني كالعادة ببساطة الأحلام وقصتها المكررة منذ أجدادها وآبائها جميعًا دون شرط الصدق بالطبع.
وغادرتني لأتألم وحدي، لماذا أتألم الآن؟!
كانت الإجابة بسيطة، لأنني قد كذبت على أمي، وكان ذلك بشأنها، إنني أكذب دومًا حين يتعلق الأمر بشأنها.
لم أكن منزعجة لفكرة أنى قد حلمت بي وقد أذيت أخى بغير عمد، إنما انزعجت لأن من دهسته الرياح في الحقيقة لم يكن شخصًا آخر سواي.
أغلقت النافذة وأنا أحاول انتزاع نفسي من كل ما مر بذاكرتي وأنا أنظر عبرالمكان ذاته كما حدث ذلك الصباح البعيد.
اليوم، رحلت أمي، رحلت أيضًا الى اللا مكان ذاته الذي يتركني الجميع راحلين إليه كما كانت تخبرني كلما غاب أحدهم في طفولتي، وبقيت أنا وحدي!
اتجهت إلى الطاولة التي اعتدنا الجلوس إليها، وشعرت بأن فتاة غيري تجلس إلى هذه الطاولة لتسترجع حياتي معها ومع الآخرين، وأغلبهم من رحلوا.
فتاة أخرى تمد يديها لصورة عائلتها، تتناول الصورة، تنظر إليها، تنفخ عنها الغبار، وتسقط وقفة أمها، يفتت الهواء أمها إلى ذرات تطير بعيدًا بكل سهولة.
تقلب الصورة وتنظر للفراغ بشكل قوام أمها الراحلة.
الفراغ بطول 7سم في الصورة، بطول 167 سم كما يقول أبوها فى الواقع.
167 سم قابلة للزيادة.
الزيادة التي تسمح للأشباح بالعبور من قصص النوم المسائية لتحت أغطيتها قبل أن تنام.
الزيادة التي تسمح لسؤال ضخم وحائر أن يعبر حينما ترى قطرات الدم في ألبستها الداخلية وتتألم دون طمأنة والدتها الحانية.
الزيادة التي تسمح بدخول الأشياء المؤذية.
الزيادة المرنة الطيّعة، القابلة للتمدد حسبما يقتضي الأمر.
الزيادة التى تسمح بازدحامها بالعديد من الأشياء التي لا تتركها وحدها، وأكثرها الوحدة والخوف.
كانت هي، وليس أخي في الحقيقة، من رأيتها فى حلمي ذاك، تربت على قلبي وهي تضعني في منتصف الطريق وتحمل لي كرتون يخصني!
كرتون يحمل أشلائي!
كرتون به دماء وقطعة عتيقة من السماء، قلب صغير مزدحم بالكثير من التفاصيل والكائنات، كيس نايلون أسود يحمل نصيبه من الشوائب، بعضًا من أصوات هشة، وروحًا ظلت بلا وطن تسكنه، إلى أن حلقت تبحث عن انتماء، وجسد معجون بلا هوية.

علاقة تعيسة

في موعده الأسبوعي في عيادة الأسنان، استرخى في مقعده كالمخدّر، معلمة مادة الرياضيات كانت تنتظر دورها مثله، كانا يجلسان مقابل بعضهما، يفصلهما باب غرفة الطبيب الخاصة بالفحص، وضعت يدها المتوترة على فكها الأيمن، بينما فكه الأيسر كان يبدو منتفخًا ومترهلًا مثل حبة خوخ طرية جدًا، لم يبق في العيادة أحدًا سواهما، مرت أكثر من ساعة على انتظار دور أحدهما، حتى صارت حركاتهما على المقعد متململة، الضجر وجد خصوبته فيهما، تكاثر الضجر داخلها حتى همّت بالخروج، في حين كان الرجل يتلفت حوله، رآها تغادر في تثاقل ببراعة امرأة اعتادت على ألم الأسنان، تبعها دون وعي، ثم افترض القدر صدفة أن يركبا نفس سيارة الأجرة، غير أنه لم يمهد لأن يتعرّفا على بعضهما، ريح خفيفة تمر بأنفاسهما المهملة، وقبل أن ينزلا لمح وجهها في المرآة الأمامية للسيارة، أحس بمحصول حقل يحصده من الندم، لماذا لم يسألها عن أي شيء محاولًا التعرف إليها؟ على الأقل اسمها! عاد إلى بيته، تطلع إلى المرآة، وسأل وجهه: أي فهرس سيدلني على اسم تلك المرأة؟!

صار الرجل يذهب إلى عيادة الأسنان كل أسبوع، حتى بعد أن خلع آخر سن من فمه، في آخر زياراته أخبره الطبيب أن المرأة التي يبحث عنها، كانت تأتي إلى العيادة كل أسبوع مثله، وتأخذ أسنانه التي يخلعها، لتزرعها في فمها، ودائمًا كانت تقول: فقط لو أعرف من صاحب هذه الأسنان التعيسة.

حب منتهي الصلاحية

"خيار، طماطم، ليمون
زيتون، كاتشاب، توست"
!!!
في الصباح، وجدت الورقة الصغيرة على المقعد المجاور في سيارتي، قطعة صغيرة اجتزت بعناية من دفتر مذكرات أو من دفتر توقيعات شخصي "أوتوجراف"، زرقاء اللون، ذلك اللون الأزرق الشاحب، تنظمها سطور أفقية خفيفة وتحوطها زخرفة جميلة على شكل شرائط وزهور متداخلة.
جذبني الخط الجميل "المنمنم" الخط الذي يجعل كلمة "طماطم" شهية، وحرف الطاء كمقدمة سفينة تخترق الموج الأزرق، سفينة ذات صارٍ يطول السماء، وحرف الكاف في "كاتشاب" كطائر يكاد يلامس الأرض بأحد جناحيه.
"من أين أتت هذه الورقة؟
من كتبها يا ترى؟"
محمود!! نعم، محمود، هذه الورقة تخصه، أتذكر أننا مررنا على محل بالأمس قبل أن أودعه بيته، وأظن أني لمحت في الأكياس التي عاد بها "توستًا" وسمعت صوت اصطكاك زجاجات الكاتشاب، ولكن لا يمكن أن يكون خطه، فخط محمود أعرفه جيدًا، منذ أيام المدرسة والواجبات التي كنت أنقلها منه، ذلك الخط الذي يذكرني بآثار نمل حائر.
قادني عقلي إليها، بما أن أمه عجوز وشبه أمية، وبما أن إخوته وأخواته الباقين صغار، فلا يوجد غيرها، أخته.
أذكر أني لم أكد أتبين ملامحها في لقائنا، أو على الأصح ارتطامنا الخاطف على درجات سلم منزلهم قبل أن تفر هاربة في خجل، ولا يسعني تذكر شيء عنها سوى بريق عينيها.
طويت الورقة ودسستها بين الأوراق الأخرى التي تعمر جيبي، وانطلقت إلى عملي وعقلي ملفوف بورقة صغيرة ذات زرقة شاحبة.
أي شيء يعبر عنك أكثر من هذه الورقة التي لا قيمة لها في حساب الناس؟ كم هي الأشياء التي قد يزرعها عقلك اللاواعي في هذه الورقة؟
في المساء، جذبتها من بين فوضى الأوراق التي تثقلني "فواتير، إيصالات بنوك، بطاقات عمل، أوراق دونت فيها أرقامًا أو أسماءً" وفردتها أمامي على تلك الطاولة المنعزلة في المقهى، وجعلت أتأملها وأنا أرتشف رشفات حذرة من القهوة الساخنة.

يقال أننا يمكن أن نعرف الإنسان من خطه، فما الذي يخبرني به خطها؟ ما هي هذه الأشياء المخزونة في داخلها التي تتسرب على شكل خط أنيق؟
أخبرتني الورقة الصغيرة عن روح شفافة بشفافية زرقتها الخفيفة، وأخبرتني عن رقة تجلت في طريقة نزع الورقة، ذلك الرفق الشديد الذي منح الجهة المنزوعة حدًا ناعمًا شبه صقيل.
خفة يدها ومرورها على السطر بلا اهتزاز كشفت لي عن قلب هادئ يخفق بانتظام.
وتركت أصابعي تتجول على الحروف المنقوشة بحنان بالغ.
ما كنه القلب والعقل اللذين يحولان ورقة لا وزن لها إلى كل هذه الدقة والأناقة والجمال؟
هل يمكننا أن نعثر ولو للحظة على إنسان يستطيع أن يصنع الجمال في أشياء وفي أماكن لا يلتفت لها أحد؟
توقفت قليلًا لألتقط أنفاسًا لاهثة، ولأتناول القليل من قهوة تهاجمها البرودة والخدر، ما الذي أعرفه عنكِ الآن؟
روح شفافة، رقيقة، جميلة، عقل منظم جدًا، روحي الآن تفتش عن ملامحك في ملامح أخيك، أتخيل تقاطيع وجهه الآن، أحاول منحه رقة أكثر، أمنحه شعرًا أسودًا طويلًا، شفتين ممتلئتين، خدين أنعم وأطرى، قوامًا جميلًا متماسكًا، ولكني أحصل في النهاية على "جوليا أورموند".
استقرت تلك الورقة برفق شديد في أنعم وأأمن مكان من محفظتي حيث تستقر أوراقي المهمة جدًا، واستقرت في ذهني صورة غائمة رسمتها ببطء لملامح جميلة جدًا سرقت أكثرها من وجه "جوليا" وبعضها الآخر من خيالاتي.
وفي الليل، عندما أتهادى بين اليقظة والنوم، وعيناي تتابعان حركة الأشجار التي يعكسها ضوء شارد على سقف غرفتي، لا يحتل عقلي شيئًا سواها، أتذكر ورقتها الزرقاء وهي تمحو منها الطلبات، وتنقش مكانها بذات الخط اللذيذ كلمات حب أبدلها في خيالي كل لحظة.
أتخيل نون "زيتون" مستقرة بكل ثقلها ولكن في "أحبك بجنون"، وكاف "كاتشاب" قد فرت إلى "كلي لك"، والميم والواو في "ليمون" تثبتان أمام موجة زرقاء كاسحة تمحو الحروف الأخرى وتخلف عندما ترحل "أموت فيك".
تمنيت وتلك الورقة الصغيرة ترقد بين أصابعي لو وجدت دربًا إلى أوراقها الأخرى، تساءلت عن كم الحروف والكلمات الجميلة الناعمة التي تزين دفتر مذكراتها الرقيق، تخيلته، صغيرًا بحجم كفِّي، ذا غلاف سميك غطته زينة بألوان زرقاء متداخلة، وفي مساحة رحبة في قلبه استقر اسمها ترى ماهو، نوران؟ حيث النون تتكئ على الواو برفق، وحيث الألف تكاد تسقط في أحضان الراء، والنون كثمرة ناضجة للقطاف.
تخيلت أوراقه التي ستتبدى لي عندما أدفع الغلاف برفق كأني أدخل عالمًا سحريًّا، الصفحة الأولى التي تحمل الزهور والشرائط المتداخلة ذاتها، تخيلتها عارية تمامًا إلا من كلمة واحدة استقرت في المنتصف، كقلب نابض، كأصبع مشهر في وجهي، "أنت".
تخيلت كم المشاعر التي أودعتها في بقية الصفحات، أبيات الشعر التي أعجبتها فزينتها بخطها اللذيذ، تخيلت شعرة طويلة فرت من رأسها وضاعت بين الصفحات حتى أعثر عليها وألفها حول إصبعي.

تخيلت كمّ الأحضان التي نالها هذا الكتاب المحظوظ، رقدته الهانئة على صدرها عندما تسرح عيناها في السماء تفتش عن نجم أو وجه تعرفه، وتحبه أنفاسها وهي تداعب أوراقه، ربما دمعة صغيرة تسللت ذات مساء وغابت في البحر الأزرق الصغير.

صرت أهتم بلقاء محمود عن ذي قبل، تطيب لي ثرثرته، بل أتابعها باهتمام، وأحاول أن أصطاد فيها أي إشارة ولو كانت بسيطة إليها، أحدق فيه بقوة، أفتش في ثيابه وملامحه عن أثر، أي أثر يغذي شوقي إليها.

كان الألم يمزقني عندما أجالسه، ولا فكرة تتسلط على ذهني إلا هي، كنت أذوب خجلًا عندما أضبط عينيَّ وهما تخترقانه، تمزقانه، تفتشان بكل قوة عن آخر صورة لها اختزنتها عيناه.

هل هو الحب؟

هذه العاطفة الغبية، هذا الشوق الأحمق، هل هو الحب؟ هل سلبتني عقلي وراحتي بنظرة واحدة وورقة صغيرة؟ هذا التشتت والضياع، هذه الأحلام والهواجس الآثمة، هذه الموجة الكاسحة التي تجذبني كلما فردت ورقتها الشاحبة، هذه اللهفة التي تحرقني بلا سبب.

حدثتني نفسي بأن أتخلص منها، أن أمزق بيدي آثار الأغلال التي قيدتني إليها، أن أفر، أن أفتح قلبي للهواء والحياة مرة أخرى، أن أطرد كل هذه التخيلات التي خلقتها، فاستعبدتني.

ودَّعت ورقتها كما يجب أن يكون الوداع، أخرجتها ذات مساء عندما داهمني المطر وأنا عائد للمنزل، قبلتها مودعًا، ووقفت هناك تحت أضواء الشارع الباهتة أتأمل كلماتها وهي تذوب وتختلط ثم ترحل مخلفة عجينة رقيقة، دفنتها أصابعي في الرمل الرطب لأرض مجاورة.

شفيت أخيرًا، وبدأت أتنفس بعمق، تبقى فقط حنين جارف يعاودني كلما زارني خيال صنعته في تلك الأيام، حنين ذو مذاق غريب، وشيء من ندم قليل.

أما "محمود"، فبدأت أستعيد أنفاسي أمامه مرة أخرى، وعدت أصافحه فلا تنازعني يدي، تبقت فقط تلك النظرة المخبولة التي تتفحص يديه في كل مرة يخرج فيها من المنزل.

شيء من هذا القبيل

لا يوجد في الحياة ما يسمى ب"جريمة بلا ضحايا".
كررت هذا لنفسي بسخرية وأنا ألقي جانبًا بالصحيفة التي اعتلى أحد منشوراتها ذلك العنوان.
ليس هناك شيء من هذا القبيل.
أو حتى ما يقولونه أولئك الحمقى عن الجاني الذي يكون ضحية القتيل من أول القصة وليس العكس.
إنها مسميات أجوف حتى من طبيخ زوجتي التي لا يختلف طبيخها المكرر عن مظهرها الممل، كل شيء في هذا المنزل يدفعني للضجر حتى الصباح، توقفت عند هذه النقطة من تفكيري وبدأت إعداد ملابسي لحمام ساخن كي أنطلق خارجًا بسرعة، بينما هي تخيط الخطوات ببعضها لتلتصق بي في سذاجة وطيبة.
كلما عانقتني زوجتي هكذا، أدركت أنها لا تزال كما هي، مغيّبة عن أسراري ولا تعرف شيئًا عن كل ما أخفيه عنها من شؤون، أو عن خططي لتنظيف حساباتها المصرفية وبدء حياة جديدة من دونها يومًا ما.
كانت تبتسم لي هذا الصباح وكأنها عادت مني للتو بعد سفر طويل أثناء عناق طويل مضجر.
هذا عندما لاحظت سكين في يدها، سكين كان يقطر بالدم.
لم أشعر أبدًا بأي شيء قبل ذلك سوى عناقها الطويل المثير للضجر، كما هي العادة.
لكني شعرت الآن فجأة، بألم حاد يصرخ في صدري، وانهار ثقل جسدي كاملًا على ركبتي،
وأدركت أنه ربما زوجتي المسكينة الغبية، بعد كل ذلك، قد ارتكبت للتو،
جريمة بلا ضحايا.

للعرض فقط

أمام شرفة حجرتها تقف محدّقة بالفراغ المتماثل أمامها، عاجزة عن تكوين صورة دقيقة للمشهد المقابل لها عن بعد.
تقف بأنوثة مبهرة تسلب الأنظار، ترتدي ثوبًا من البياض يدل لمن ينظر على خفة روحها يتخلله تموجات خفيفة بلون الزهر يتمايل مع نسمات هواء عليل تداعب شعرها الحالك السواد المرسل على كتفيها بعذوبة، لتبدو كطفلة في سنيّها الأولى من الحياة.
تورد خديها واتساع عينيها وضآلة عودها لا يجعلك تدرك أن من أمامك شابة فى السادسة والعشرين، يخترق أذنها أصوات تعلم ولا تعلم مصدرها. ما هذه اللوحة؟!
هتاف أطفال يركضون خلف بعضهم، يدورون حول أهلهم، يتضاحكون ويتباكون، أبواق سيارات ملّت الإنتظار والصبر، فانطلقت تهتف بمن أمامها، كما تهتف هي بالوقت.
صيحات شباب يركلون هواءً مستديرًا حبسه إطار مطاطي، كما ظلت هي حبيسة طقوس مملة.
وزمجرة كرة تقاذفتها الأرجل متضجرة من حالها المزري، كما تشعر الآن بما تحمله من روحها.
رفرفة عصافير ترجو العودة لديارها قبل أن تنطفيء أضواء النهار وتشتعل المصابيح الجانبية، كما يرجو قلبها.
مواء قطط تستجلب عطف الرحماء من بني البشر ليلقوا إليها بكسرة خبز أو بقايا من لحم وعظم وربما شربة ماء أو سقيا حليب تحيِها.
وهناك مواء آخر بداخل قطط شريدة تحتاج إلى الدفء، والدفء فقط، لا شيء سواه ليقيها الموت وحدها.
ضحكات مراهقات تزهو كل واحدة منهن بأفضل ما اشتراه لها والدها وتصف أروع ما أتقنته من لوحات ترسمها بأصابع ماهرة على صفحة وجهها، وأخريات يتحدثن في أمور الأزياء والأشكال والألوان والجمال.
ابتهالات أمهات يرفعن الأكف من منازل مجاورة ويطلن الدعاء إلى الله بأن يحفظ أبناءهم ويسعد حياتهم، كما سهرن عليها طوال صباهن وشبابهن.
تقريع آباء يوجهون أبناءهم للصواب ويزجرونهم عن الزلل، ويمنحونهم أطايب الحكمة التي اقتبسوها من الحياة، بالطبع دون أن يستلزم الأمر أن يأتوا بها.
تشد كفها الصغير على السور الماثل أمامها وترسم ابتسامة سعادة وود، وكأنها قد شاركت هؤلاء جميعهم أوقاتهم واحتوت انفعالاتهم فى قلبها، بينما تتشتت حركة بؤبؤيها الجميلين بحسب الأصوات التي تخترق طبلة أذنيها، ثم ما تلبث أن تعود أدراجها وتتلمس طريقها نحو سريرها المتوسط حجرتها بعد أن أغلقت شرفتها وأسدلت الستائر.

بينما في الجهة المقابلة، يقف هو، متجاهلًا الدوامة التى تحوم حوله، أو صوبها.
يرى منها ما لا تراه منه. يحفظ بدقة تفاصيلها، بينما هي تفتقر لامتلاك أدنى صورة عنه.
يراها وبنفس الموعد، منذ انتقل لهذا الحي، كما اعتاد أن يفعل منذ وقعت عيناه عليها فى إحدى الصباحات.
يتأمل براءتها وينتشي بسحرها، دون أن يثير ضجيجًا يفسد هالتا الصفاء والنقاء اللتان تحومان حولها أمامه.
يود لو أن يكون شخصه هو من ارتكزت عليه أفكارها، أن يكون لطفه هو من يرسم أجمل البسمات على ثغرها. أن يكون حضنه هو من يلملم رجفتها الهادئة، أن تكون يده هي المنديل الذى يمسح حرارة دموعها التي يراها أحيانا من نافذتها. أن تكون ذراعه هي التي تستند إليها كفها الرقيقة بدلًا من ذاك الجماد البارد، أن تكون أنفاسه هي من تعبث حانية بخصلات شعرها، أن يقف بجوارها ليرى المنظر من منظورها ويعيش اللحظة كما تعيشها يوميًا.
وكالعادة، أغلقت شرفتها أمام أمنياته!
ليهب واقفًا، عازمًا أمره على إبلاغ أهله بوجوب التودد الى عائلتها وزيارتهم بحجة أنهم جيران قدامى، ولا يدركون بعضهم البعض حتى الآن ويرغبون بتكوين علاقة حميمة مع جيرانهم مثلًا كما تجري العادات، كما أضاف بشوق سرًا لأمه بعزمه على اختيارها لتقاسمه ويقاسمها حياتها.
كان يجول بعينيه فى كل ركن من منزلها حين وصلوا، ثم نهضت الأم لتخبرها بزيارتهم الطارئة، وتجبرها على القدوم، فهى وكما عرف عنها منذ أربع سنوات لا تحبذ الجلوس أمام الزوار، "لكن الآن يكفيها هروبًا".
ما لبث الزوار أن سمعوا قرعًا على الأرض، لتلج بعده فتاة أقل ما يقال عنها، فاتنة.
وهي تمسك بيمينها عكازًا ليدلها على طريقها.
ألقت التحية، واتخذت من أقرب مقعد لها مكانًا، بينما الصدمة فغرت وجوه الحاضرين.
كانتا تلك العينين الرائعتين، لا تبصران.
وكان هذا أول الغيث بالنسبة لهم، إنها أرملة وثكلى، فقدت زوجها وطفلها في نفس الحادث الذي أودى ببصرها، وجعل الظلام يلفها أينما كانت.
أما هو، فبذات الشوق والحرارة التى رغبها بها وتطلع إليها مرارًا كلوحة كاملة، أبدل رغبته العنيفة بالارتباط بها، لحقد متأجج يصوبه نحوها. الكاذبة المقنّعة! ، ألا يكفيها عيب واحد - كما يزعم - لتضم تحت قناع براءتها ثلاث عيوب؟!
أصدر أمرًا بأنها امرأة معيبة، لا تصلح للرفقة أو الزواج. هي امرأة للحب بالعين فقط، شأنها فى ذلك شأن كل ما تحل عليه لعنتها الزائلة، جمالها. حطم هالته حولها كأصنام المعابد، التي تطير رأسها بضربة فأس واحدة عند تحلل قوامها دون أن يرمش قلب نسّاكها البارين.
تجاهل وبقسوة، مسحة الألم التي تمنى إزالتها، الدموع التى تمنى تجفيفها، الوحدة والوحشة اللتان تمنى إبعادهما، الغربة التي أراد توطينها، ركلها، وتركها تجدد أحزانها وتعزي نفسها مجددًا، وتمنح قلبها بضعًا من الثبات، كما اعتادت لبقية عمرها.
بينما كان يعاود المرور من أمام شرفتها حانقًا: "لو أنني فقط أعثر على امرأة بقدر جمالها، تصلح للحياة".

ما يرويه جدارٌ يريد أن ينقضّ

إنه آخر يوم من حياتي، أو هكذا فهمت من المعدات الثقيلة التي أدخلوها الغرفة هذا الصباح، وعمّال البناء الذين تبدو ملابسهم المتسخة وأيديهم الخشنة الصارمة كما لو أنها تحمل آثار قبيلة جدران أخرى فانية امتصتها عروقهم. لا أعرف السبب المحدد الذي قرروا هدمي لأجله، ولا أعرف إن كنت أشعر بالأسى لذلك. لكن العالم يبدو على ما يرام أثناء ذلك، ولا شيء ينهار حولي. قضيت عمرًا طويلًا في هذه الغرفة، ومررت بالكثير من البشر ومختلف أنواع التجارب التي تتبدل عليهم كالملابس، هي في الغالب تجارب صامتة وساكنة تتناسب بشكل كبير مع الطبيعة المتوقعة مني كجدار. والآن قررت أن أبوح بشكل سري ببعض ما مررت به قبل أن يشرع العمال في الهدم وتتكاثر فيّ الشروخ. يُقال أن شرخًا يحدث كلّما فقد الجدار جزءًا جذريًا من ذاكرته، لهذا تتخذ الشروخ شكل جذور، هذا ما سنختبر صحته لاحقًا. أما المقولة التي يرددها البعض أن للجدران آذان فهي صحيحة تمامًا بالمناسبة، لكن ليس بالمعنى الذي تدركونه أنتم، ما لا تدركونه هو أن للجدران أصوات أيضًا، تحتاج فقط أن تملك الإصغاء الكافي للاستماع لها وأن يسعك التعرف عليها.

لست الجدار الأجمل في الغرفة، لكني بالتأكيد الأكثر انتظامًا، ولطالما كنت الجدار الأكثر خلاءً هنا، فرغم تعاقب مختلف أنواع المستأجرين إلا أنهم تواطئوا غالبًا على أن يتركوني فارغًا دون أن يعكر أي جسم آخر اكتمال حضوري. لوني يبدو ناصعًا مقارنة بالجدران المجاورة القاتمة، لكن من يعرفني جيدًا يدرك أنه في الحقيقة أقرب إلى السكّري، وهذا ما يمنح العينين الراحة الكافية لإطالة التحديق نحوي دون الحاجة لأن تملأني بأي جسم خارجي. فيما يبدو سطحي للرائي أملسًا وساكنًا تمامًا، ما عدا من نتوءات صغيرة دقيقة، هي أشبه بقرون استشعار لا تمنح لذتها السرية إلا لمن يقترب بما فيه الكفاية.

يجاورني من الجانبين جداران يبدوان أطول مني نسبيًا، ولا أرى منهما الكثير لأنهما يكونا محجوبين غالبًا بقطع الأثاث من سرر ودواليب وخزانات وغيرها من الأشياء التي يركنها البشر هناك وتبدو لهم أكثر أهمية منا. يقطن الباب في بداية الجدار المجاور إلى يميني، وأرضية الغرفة مفروشة بسجّاد ناعم مشذب الأطراف يداعب أسفلي، أما السقف فهو عارٍ تمامًا إلا من ثريا كريستالية صغيرة تعكس بريقها على أرجاء الغرفة إذا داعبها ضوء ما. هذه هي التفاصيل الشكلية التي تغيرتْ على نحو طفيف عبر مرور الأيام. هناك أجسام أخرى حضرتْ وعقدتُ معها صداقة صامتة مؤقتة ثم رحلتْ دون عودة، لكن الوقت القصير المتبقي من عمري لا يمنحني الفرصة للإسهاب في وصفها هنا.

على الجدار المقابل تتربع نافذة في المنتصف تمامًا، بأطر أربعة أنيقة وستائر شفافة رقيقة،

وكانت لحظتي اليومية المفضلة حين يقرر أحدهم أن يشرع الشبابيك. كيف أصف لكم ثراء ذلك الشعور؟ اللحظة التي تتراقص بها الستائر مع الهواء، وتتطاير ذرات الغبار العالقة بالنافذة، وتكتسب الغرفة ألقًا إضافيًا نتيجة البريق المنتشر فجأة على الأسطح، إذ يتشبّع السكّري في بشرتي بلون الشمس مكتسبًا مسحة سينمائية خلابة، فيما يتسرب الهواء الطازج إلى الداخل مانحًا ملمسي مخمليةً منتعشة. تلك كانت نافذتي الوحيدة على عالم أكثر امتلاءً وصخبًا. لم أكن أدرك في أي طابق نحن، لكن بإمكاني التنبؤ أنه كان مرتفعًا بما يكفي ليطل على المدينة التي لا أدرك أبعادها. كل تلك المباني الصغيرة في البعيد، كانت تشعرني بأني مرتبط بكل شيء حولي في تناغم هارموني عظيم، كما لو كنت جزءًا ضئيلًا بما يكفي لأن يبقى منسيًا، ولكن ضروريًا بما يكفي ليحفظ تماسك هذا العالم.

أشعر بالأسى تجاه الجدار الذي يواجهني لأنه لا يستطيع أن يطل من النافذة، رغم المساحة الكبيرة التي تحتلها منه. لكنه لم يشتك يومًا ولم يحرك ساكنًا، حتى حين دقوا جانبيه بالمسامير وأورثوه صداعًا هائلًا في أحد الأيام ليعلقوا عليه لوحتين سخيفتين لا ذوق حقيقي بهما، ظل صامتًا صامدًا دون أي شرخ اعتراض على سطحه. كانت اللوحتان المعلقتان بشكل متوازٍ إلى جانبيْ النافذة تبدوان لي، ببراوزيها المتساوية الأطراف، كعينين ضخمتين تحدقان نحوي دون توقف، ولم يكن هذا يزعجني بالضرورة حيث أن طريقة تواصلنا لم تكن بتلك الحسية التي تدركونها أنتم، أنا وهذا الجدار المواجه لي منذ الأزل. لم نتحدث يومًا ولم نتبادل نظرة ولا إيماءة، لكننا على نحو صامت وبسيط كنا نؤنس عزلة بعضنا.

وذات يوم، استأجر الغرفة رجل مهووس بالسينما كما يبدو، واستبدل اللوحتين المدّعيتين بملصقات لأفلام جذبني بداخلها وجود ممثلات بارعات الجمال، يحدقن نحوي بابتسامات لا تفتر وعينين لا ينضب بريقهما وإغواء ساحر. وفي المساء، أحضر ما يسمى بجهاز العرض، ووضعه في الطرف المعاكس من الغرفة، تحت النافذة تمامًا، وكشف عن عدسته الأمامية المواجهة لي، ثم أغلق إضاءة الغرفة، وسدّ كل منافذ الضوء عند النافذة دون أن يترك أي فسحة للنور. كنت في البدء مرتابًا وسط كل هذا الظلام اتجاه هذا الجهاز الغريب الذي لم أكن أعلم ما يمكن له القيام به وهو مصوب نحوي هكذا. لكن ما إن بدأ الجهاز بالعمل، حتى خرجت حزمة ضوء مكثفة من عدسته، تتوسع تدريجيًا كلما اقتربت مني، لتملأ بسطوعها جوانبي كلها في أطر متساوية ثابتة، وما حدث بعدها كان شيئًا يشبه السحر تمامًا، شيء يصعب علي وصفه لكم أبدًا أيها الغرباء الأعزاء إن كان أحد منكم يصغي إلي الآن، شيء لا يمكنني أن أصفه حتى للجدران الأخرى التي لم يتسرب إليها ويتخللها الشعور به. كل ما يمكن قوله هو أني كنتُ مضيئًا! كنت مشعًا ومُشبعًا وحيويًا كما لم أشعر من قبل. كل تلك الألوان النقية التي أخذت بالتفجر في كل جزء مني، تتحرك داخل الأطر وتتبدل بألوان أخرى تعاود الظهور بدرجات متباينة ومتداخلة. لم أكن أدرك قبلها أن ألوانًا كتلك يمكن أن توجد وأن تمسني وتنفذ لسطحي، لم أكن أدرك حتى قدرتي أنا على التشكل بكل هذه الصور والأحداث. رعاة بقر بخيولهم الجامحة يخوضون مغامراتهم فوقي، ورجال عصابات بسياراتهم ومسدساتهم ودخان سجائرهم الذي يطفو في كل مكان، قصص وألغاز وجرائم، ملاحم وأساطير، وحوش وأقزام، ملائكة وجنّيات، وأناس يمرحون ويبكون، يولدون ويموتون، ويقعون في الحب ويفترقون في وداعاتٍ حميمة، كل ذلك كان يحدث فوقي فقط، وأنا

أتألق، أتألق، أتألق، كما لو كنت أكتشف أخيرًا شعور الثريا الكريستالية في سقف الغرفة وهي تشع على كل شيء في مجالها. كل شيء كان يحدث بخفة لا أكاد أشعر بها، بوزن الضوء الذي لا يحجبني أو يترك خدشًا على جسدي، ولو نظرتم إلي لما أدركتم أني خضت كل تلك التجارب وقطعت كل هذه الأماكن وعبرت كل هذه الأزمنة والعصور، وكان هذا هو الجزء الأكثر إدهاشاً في الأمر كله، بمجرد أن تطفأ تلك الإضاءة كنت أعود إلى خصائصي السابقة دون أن تترك آثار الانفجارات والدماء والعناق وأحمر الشفاه أي لطخة فوقي، تشتعل أنوار الغرفة مرة أخرى ويتبخر كل أثر لتلك الصور والألوان والحيوات المتباينة، بينما أحتفظ أنا في مكان كامنٍ داخلي بالوهج السحري لكل ما حدث.

الآن يكاد أن ينتهي كل هذا، كل تلك التجارب العديدة بثرائها ومراراتها وأصدائها المختبئة في الزوايا، فيما يباشر العمال طعنهم فيّ بأدواتهم الثاقبة، وأكاد أن أطوي بسقوطي كل ما مررت به. لا أزال أملك الكثير لأحدثكم به، عن ورق الجدران القبيح الذي ألصقوه بي لفترة من الزمن، ومشجب الملابس الذي علقوه علي مائلًا ذات يوم، والطفل الذي كان يرسم أشياء تتجاوز سنه في زاويتي السفلية اليمنى، والأصوات التي كانت تصلني من الغرفة المجاورة بالعديد من الأسرار والحكايات الثرية، والنمل الذي اتخذ مسكنًا له داخلي، وكنت لأحدثكم عن الكثير غير هذا، لولا أن الوقت ينفد مني الآن، وأنا أشعر بالشروخ تأكل ذاكرتي، وتنسيني شيئًا فشيئًا ارتباطي بكل تلك التجارب. النافذة المشرعة على المدينة تطل كعادتها في البعيد على مبانٍ أخرى صغيرة، يحمل كلًا منها بداخله جدارًا بذاكرة فريدة لا تشبه ذاكرة وتجربة أي جدار آخر، ولعلها تتسائل وحدها هي الأخرى إذا كان ثمة مصغٍ لما تقوله. ها أنا أشرع في الانقضاض ببطء، تتحرك الستائر لتمنحني مداعبة أخيرة، يتجذّر شرخ مؤجل في ذاكرة الجدار المقابل.

أحاول أن ألخص تجربتي سريعًا بشكل سينمائي، فيما ينطفئ في ذاكرتي كل فيلم شاهدته، ولا يبقى غير هذا المشهد أمامي.

فوتوغرافيا

حلّ الصباح على سريره القديم المثبت بأحد أركان الغرفة المستطيلة المعبأة بروائح مختلفة خانقة، كانت الغرفة تعجّ بصرخات المصابين وصيحات ألمهم ولوحة شبه ممزقة متناثرة بالمكان من مناظر الجروح والأدوات الحادة المعقمة والملابس الممزقة والأسِرَّة المبعثرة في كل بقعة، بينما هو يتقلب في جسده المريض طوال الليل ولا يهدأ، لم ينتبِه إليه أحد من الأطباء حيث كانوا في غرف الطوارئ لديهم ما يكفي ليشغلهم من الجراح والصيحات والمرضى، كل ما يصله بالخارج نافذة متسخة ذات اطار أكله الصدأ، إلى جانب سريره استقر سرير صغير خالٍ، لم يحظَ بعد -بالرغم من كثرة المصابين- بالمريض الذي يشغله.

نظر إلى السرير الفارغ إلى جانبه مرارًا بعد إخلاؤه من آخر مصاب سعيد الحظ لم تستغرق راحته وقتًا لتحل.

تساءل عمّن سيشغله الآن؟ هل سيكون مريضًا؟ أم مصابًا مثله ومثل الأغلبية هنا؟ رجل أم صبي؟ هل هو مناضل أم صاحب عائلة يتركها خلفه؟ جاءت عليه ليال هنا تمنى فيها لو أنه يتلقى كل هذا الموت دفعة واحدة، وبالنيابة عن الجميع، تبلد وعيه من كل هذا الألم المحيط، تمنى لو كان له جسدًا أضخم، جسد يتسع لَضَمّ أسِرّة المستشفى في كتلة واحدة يشملها بجسده وحده، ربما يمتص وحده دماء وآلام كل الجرحى والمرضى القادمين، فقط هو يتوجع، يعاني، يتقلّب، يئن، ويرحل. بينما الآخرين ناجين من تلك التجربة، يتمتعون بحياة أعدل، خارج المستشفى وغرفها الأشبه بالمقابر، وتقود بالعادة إليها، أحسّ بالوجع يتكاثر في تلك الغرفة بدلًا من أن يخمد بداخلها.

حاول النهوض بصعوبة ليأخذ وضعية الجلوس، ثم أسند ظهره على الوسادة بعد أن تأكد من سلامة الضمادات بجسده، صار يمسح العرق الساخن عن وجهه بأكمام كنزته الوحيدة التي تقيه بعض البرد. كان مصرًا على الاحتفاظ بتلك الكنزة أكثر من أي شيء بقى له أو معه في هذه المستشفى، كان يشمّ رائحتها تفوح دائمًا من بين أنسجتها وخيوط الأزرار التي ثبتتها لأجله بعناية.

الفتاة الحلوة المتحفظة التي التقاها داخل استديو التصوير في المدينة قبل الاجتياح، جلس ينتظر دوره إلى جانبها بينما كانت تقرأ كتابًا من الشعر وتردد بعض المقاطع التي تتوقف عندها بخفوت لا يلحظه سوى من ينتبه سلفًا، شعر حينها برغبة في فتح حديث معها ولو للحظات عابرة أثناء انتظارهم، كانت قليلة الكلام ومتحفظة، وكان التحدث معها صعبًا، قال لها أنه سيتصوّر للذكرى صورتين حديثتين يتركهما لجدته، بينما كانت ستتصوّر صورة واحدة لأوراق الهوية خاصتها، من الكلمات القليلة التي كانت تخرج منها أخبرته أنها جاءت بعد رفض مطول لكي تجمع أوراق عمل الهوية، فهي لا تريد هوية مكتوب في أوراقها مكان الميلاد "غزة" على أية حال، كانت

تريد أن يوثق ميلادها ووجودها إلى مدينة "يافا". المدينة التي لم ترَها أو تزرها أو تأكل من طعامها أبدًا، كل ما تعرفه عنها حدثتها به أمها إرثًا عن جدتها، فقط احتفظت بذاكرة جدتها لأمها كملجأ تفر إليه حين يفيض بها الحنين.
كان ثمة حزن مشترك بينهما، أدركه من حديثها الموجز عن نفسها، ومرض واحد عالق بقلبين: الوطن.
آخر مرة التقاها مصادفة، كانت قبل أسبوع واحد من تفاقم مرض قلبه وإصابته برصاصة من رصاص الاحتلال، كان سعيدًا برؤيتها وحالمًا كطفل أمام شعوره بها، أعطاها ذلك اليوم صورة صغيرة باقية لديه من صور الاستوديو الذي تقابلا فيه لتذكره، همست له بتحفظ حنون بصوت يكاد لا يسمع خفوته: أن أجمل ما فيه عينيهِ البنيتين، ضحكَ لخجلها وأعلن في جرأة مفاجئة بصوت عال أجش أنه بانتظار الوقت الذي سيجمعهما معًا مرة أخرى ولكن في غرفة واحدة وستحمل صورة لهما معًا، إلى جانب بعضهما، كانت تتعثر في خطواتها إلى جانبه وقد تضرّج وجهها بالخجل، وتمتمت بكلمات غير مفهومة تنم عن ارتباكها لكن ذلك لم يخف فرحًا خجولًا بدا على محياها.
ابتسم وهو يتذكرها ليشعر بانتشاء بسيط وسط هذا الألم، واستدار إلى جهة السرير الفارغ، فعاوده ذلك الخواء والحزن، إن منظره الفارغ تحديدًا يُشعره بالرهبة والقشعريرة، تذكّر صورة وجهه التي تحملها معها وفكر، "ماذا لو رأتني الآن، هل ستعرفني؟"
ليلة الاجتياح تشوّه وجهه بالكامل من الشظايا المتطايرة عشوائيًا مثل انهمار المطر بلا توقف.
انفتح باب الغرفة المحتجز فيها على مصراعيه لعجلات عربة نقل الجرحى وكأنه قرأ أفكاره فقرر أن ينفتح ويحضر له زائرًا يملأ فراغ السرير الذي يقض مصيره مضجعه، لمح أحدهم يحمل بين ذراعيه جسدًا ضئيلًا للغاية، ظنه لطفل، حتى بانت تفاصيله الصغيرة حين دخل إلى نهاية الغرفة، تهدّل الشعر الأسود مخصّلًا بخطوطٍ حمراء صبغها الدم على وجه مغطى بأكمله، "إنها أنثى!"، أيقن في دهشة، رُمي الجسد الضئيل على السرير الفارغ، فيما ركض حامله خارج الغرفة لينقل مصابًا آخر، ثم تحركت اليدين بخمول لتزيح الخصال الكثيفة عن وجهها وتحاول اتخاذ وضع مقبول لجسدها في السرير، وانفتحت العينين الواسعتين تجولان في أنحاء الغرفة حتى استقرتا عليه ، شَهق: "أنتِ؟!"
نظرت الفتاة الصغيرة إليه وسألته: "ماذا! من؟"، قال مندهشًا: "إنه أنا! صاحب الصورة من الاستوديو"، عدلت من جلستها قليلًا وأمعنت النظر في وجهه لتتعرف إليه من جديد ثم بادرت مبتسمة: "لولا عينيكَ.. لما عرفتكَ".
أثناء ذلك كانت تخرج ببطء صورة وجهه من أحد جيوبها وتخبئها تحت الوسادة دون ملاحظته، ثم قالت بصوت مرح خجول تُأرجحه بقايا حشرجات ألم متقطعة جراء إصابتها: "ها نحن في غرفة واحدة أخيرًا معًا!"

رصاص مألوف

حلمتُ بأننّا في حرب.
كنت أحتمي مع عائلتي الكبيرة في ملجأ. بوجوه أجهل غالبيتها حولي وكلها تنظر نحوي بترقب مدروس. والقصف يدوّي بالخارج. كان الملجأ عبارة عن ساحة فسيحة تحت الأرض لمول تجاري كبير ومتهدّم. كنت أرى في آخر الساحة سلالم كهربائية مطمورة برماد الإسمنت المختلط بالنفايات، والأوراق، وتلال من الأعضاء البشرية المبتورة. وفي داخل الملجأ كانت تدار معركة أخرى لكنها بدائيّة تشق جراحها بالسيوف.
كان الجو خانقًا بالداخل، وتحت الضياء الأبيض الضعيف يتهادى ضباب أسمنتي كثيف، تلتمع فيه أنصال سيوف يحارب بها أشباح غير مرئيين. شعرت بأن كل تلك السيوف متجهة ضدي، وكنت متأهبة لأن يغمد أحدها في صدري.
كنت أراني كتلة معلقة في الهواء، والمعركة تدار من حولي، وجلجلة الأسلحة تصطك في أذني. ثمّ لوهلة سادت لحظة صمت بدت كأنها أبدية. عُقدت فيها هدنة أو صلح ما. لحظة تشبه لحظة الصمت التي يلج خلالها النهار في الليل. تشبه السكون الذي يتبع شهقة امرأة دفعت للتو طفلاً جديدًا للحياة. تشبه رغوة الصمت التي تتجمع فوق بحر من الضجيج، الذي يحدثه الرتم الواحد لتجمع أناس في مكان واحد.
بعدها، نظرت أسفل مني، فرأيت السيوف ملقاة على الأرض وقد تكسرت رؤوس أنصالها.
وجاءتني من بعيد أصوات ضخّمها الصدى لأطفال يلعبون بالكرة. وأحاديث نساء كنّ يرفعن أطراف أثوابهن وهنّ مجتمعات حول بقعة فاضت فيها المياه. أغمضت عيني، وتطعّمت الملمس البارد للسلام، وذوبته في فمي، وتركته ينتشر بسكينة داخل جسدي، ثم فتحتها ببطء وأنا لا أزال أتهادى في الهواء. ورأيت عبر شق كبير أحدثته شظية لا زالت تدخّن مسارها في الأرض، قطعة من السماء في أول الفجر، قطعة أرجوانية تتخللها سحب كثيفة مشتعلة أطرافها بالشمس، تشبه شعر عمتي التي حفر لها جدي قبرًا أسفل تربة سريري. لذلك كنت أحلم بالخصل الحمراء تتحول إلى رصاصات تضيء سقف الحجرة وتسحب أطرافها المدببة غطائي. وكانت في نهاية الحلم تتفتت في رذاذ خفيف يسقط على الأرض. ويتفتت معها كل ما تركته خلفي. والوجوه التي لم أحدد ملامحها مسبقًا كانت تحمل الآن عمري في نظراتها، صورة صورة. وجميعها تشير نحوي، كي أقفز للحاق بمكاني في صورة العائلة، قبل أن تلف أصابع أبي شريطًا أسود حول الإطار كحزام أمان أبدي كي لا نعود.

تايم-لاين

يحثّ الخطى تجاه مكتبه في الطابق الرابع في الشركة، يختم بصورة سريعة على لوحة الختم الإلكترونية، يدخل باب غرفة مكتبه حيث يشاركه زملاء وزميلات العمل، يسلم عليهم في سره بكلمات متمتمة، بينما يضغط على زر حاسوبه متلهفًا إلى تلك اللحظات الفيسبوكيَّة.

يتطلع نحو الشاشة الزرقاء، يكتب اسم المستخدم والكلمة السرية بتمرس واضح، يركض بعينيه نحو الصفحة الرئيسية، يقرأ ما كتب أصدقاؤه من عبارات صباحية على جدارياتهم:

فلان يُصبِّح على كل الأصدقاء في الفيس بوك، فلانة تتمنى للجميع يومًا سعيدًا، علَّان يذكر أنه اليوم ذاهب إلى حفلة ابن ابن عمه وقد نجح بالتوجيهية.

وكثير من العبارات والتعليقات من هنا وهناك، هذا غير الصور والروابط الإلكترونية المختلفة: من أخبار، مقالات، ألعاب، صور، وأغنيات من كل الأشكال والألوان، وبحسب مزاج الأصدقاء هذا اليوم على قائمته الفيسبوكية.

يبدأ بالتعليق، يسلم أولًا على زملائه في العمل الجالسين بقربه في الغرفة ولم يلتفت نحوهم عند دخوله، ولكن على صفحاتهم الشخصية على الفيس بوك!

ثم يصبِّح على بعض الأصدقاء الذين صار يلتقيهم يوميًّا، ويعيشون معه يومه الوظيفي ولكن عبر الفيس بوك.

يكون قد نسي أن يشرب قهوته الصباحية، لكنه يتذكرها حينما يدخل المدير العام فجأة عليهم في الغرفة، فيتظاهر الجميع بالعمل والانغماس في الحواسيب.

يعود إلى صفحته بمجرد خروج المدير، يكمل ما بدأه من أحاديث صباحية وزيارة لبعض حوائط الأصدقاء والصديقات، ويضع تعليقًا تحت صورة إحداهن مبديًا إعجابه بها، يبدأ في الانتباه فجأة لإحساسها الظاهر في حالات الحائط الخاصة بها، ويتعجب كيف لم يلحظ إبداعها الأدبي المنثور في تدويناتها الفيسبوكية من قبل، بل ويكاد يقسم أنه يعتنق نفس أفكارها كلما مرر عينيه على خانة "الانفورميشن" الخاصة بها، وراقت له مقتبساتها.

ولعله لم يلحظ ذلك كله سوى وقت أن لاحظ ملامحها الجميلة، عندما احتلت في ثقة إطار البروفايل الخاص بها، أو ربما لاحظ ولكن لم تبدُ لكل تلك الأشياء قيمة قبل أن تضفي صورتها قيمة سحرية لكل ما في حسابها.

كتب ذاك الصباح تحت أطروحتها القصيرة:

"صلواتي في محراب إبداعك لم تنته بعد".

بينما يضع تعليقًا ساخرًا تحت صورة صديق له بدت مضحكة، ويواصل نهاره فيما بعد، متنقلًا ما بين إنجاز ما عليه من عمل، وبين موقعه الإلكتروني الإجتماعي التواصلي الجديد، الذي صار

يكنُّ له امتنانًا واضحًا للتسلية الكبيرة التي بدأت تصبره على طول نهار العمل وتكسبه صداقات عدة.

في نهاية يومه، يدخل للمرة الأخيرة على الموقع، يودِّع الأصدقاء والصديقات الفيسبوكيين، بأسلوب رحب يوحي لهم كم هو منخرط اجتماعيًا.

ويتوجه إلى بيته متعبًا متوجع الظهر، يسلم على أهله ببرود مقتضب منهك، يتضايق من تعليقاتهم حول عمله وتأخره، يأكل طعامه البارد بدون استمتاع.

ويسير نحو سريره راميًا الجسد المنهك.

بانتظار يوم فيسبوكي جديد، ينثر فيه الحياة!

أمنيات عالقة

عمري يتقدم ووراءه جدران مرصوفة حول جسدي، والمكان ضفة يلوح ناسها بحركتهم التي تعوزني، أو يمسح على راسي العابرون، رأسي حديدي، صلب، ومع ذلك فإني لستُ صعب المراس.

إذ يمكنكم طرق هذا الرأس، وتطويعه، وتثبيت صاحبه حيثما تريدون. وكذلك طمس أحلامه ببعض المتعلقات أو الأقمشة.

وهكذا قادتني إرادتكم إلى هذا المكان الصغير، إلى تلك الجدران العارية حولي، في هذه الغرفة الحقيرة، التي لا تشتمل إلا على سريرٍ واحد، وخزانة ملابس صغيرة جدًا ومتهالكة، يجاورها حمام لا أرى إلا الباب المؤدي إليه.

في بدايات وجودي هنا، كنت كثيرًا ما أندب الحظ الذي قادني إلى هذا المكان، وأفكر في أقراني.. أقراني الذين يسكنون في قصورٍ فسيحة، ويرتكزون على الجدران العالية. وقد حُمّلوا الساعات الباهظة، أو المرايا المصقولة، أقراني الذين يسكنون مكاتب رجال الشرطة، ويحملون صورة الحاكم أو لوحةً تقول: (الشرطة في خدمة الشعب)، أقراني الذين يسكنون بيوتًا شعبية متواضعة، ويحملون ثياب النسوة الجميلات، أو الصور العائلية البسيطة، أووه هل قلتُ صورًا عائلية.. الصور العائلية، الصور العائلية.. هوسي المتجدد، إنها الشيء الذي لطالما حلمتُ أن أحمله منذ نعومة حديدي. الصور العائلية تلك التي تؤطر بإطار مُذّهب يسجن اللحظة، يُخلّدها، يحفظ ابتسامات أصحاب الصورة من الزمن والفناء، الابتسامات التي قد ينساها أصحابها ويفقدونها حتى تأت عليهم أيام يشكّون في أنَّ شفاههم قد ابتسمت على ذلك النحو يومًا ما، بينما الصورة لا تنسى.. لا تنسى.

يا لهذه الصور العائلية، كم كنتُ أتمناها.

مضى على وجودي هنا ثلاثة أشهر، قضيتُ الأيام الأولى منها في الحسرات المعترضة ولعن إرادتكم التي قادتني إلى هنا. وبعد ذلك بدأ يتوافد على هذا المكان أُناسًا لا يؤانسون وحشتي مطلقًا، لكنهم يستأثرون بانتباهي.. وجوه تتجدد في كل يومين، أو كل أسبوع على الأكثر. رجلٌ وامرأة، رجلٌ وامرأة، رجلٌ وامرأة، لم يتوافد على هذا المكان غير تلك الثنائية المتواترة طوال الوقت. لم أرَ طوال إقامتي هنا أي أصدقاء، ولا عائلات صغيرة أو كبيرة، ولم أسمع أصوات ضحكات أطفال أو صبية يمرحون. لا أحد إلا رجلٌ وامرأة بوجوه مُختلفة في كل مرة، وأنا ثالثهما.

رجلٌ يحمل بطنه البارز، وامرأة تحمل حقيبة صغيرة، يتبادلون همساتٍ مشبوهة، ثم تضحك المرأة بلا خجل، فيضحك الرجل وتهتز بطنه. كنتُ أرقب بطن الرجل وهي تهتز فأتذكر حلمي القديم الساذج. أتمنى لو أن بطن الرجل كانت من نصيب المرأة التي ترافقه، لرُبما تمخضت هذه

البطن عن طفلٍ صغير فيما بعد. يلتقطون له صورًا بصحبتهم، فأحملها لهم، وأحقق حلمي القديم، الصور العائلية، وياالسحر الصور العائلية.
مضى على وجودي هنا ثلاثة أشهر، وتردد على هذه الغرفة رجال ونساء بوجوه عديدة وحكاياتٍ كثيرة، حتى كدتُ أن أنسى حلمي، كدتُ أن أنسى الصور العائلية.
ولم أتذكر هذا الحلم مجددًا إلا مرتين. مرةً حين زار هذا المكان رجلٌ نحيل بأسنان صفراء، حمَّلني ثوبه بالغ الإتساخ، وغطّى به وجهي المسكين، فلم أستطع مراقبة ما يجري حولي، ثمَّ استعاد ثوبه مني بعد فترة قصيرة، وارتداه وجلس على حافة السرير يُدخن بعصبيةٍ وشراهة، في حين كانت المرأة تخبئ وجهها بين كفيها، وتبكي. سمعت الرجل يلوم تفريطها الذي أدَّى بها إلى الحمل وبدا رافضًا تمامًا للأمر، كانت تبكي بغزارة، والرجل يدخن بصمت ويعود إلى لومها، قال كلامًا يتردد كثيرًا في الأفلام العربية التي عاصرتها سماعيًا في صغري من داخل علبتي الورقية مثل: لستُ مسؤولًا عن ذلك الجنين، لابد أن تتخلصي منه، لن أتسامح مع تفريطك، لن أنسبه لي، لن أستمر معك لو استمر ذلك الحمل. و .. و ...
ولم تزل المرأة تبكي، ولو أن الحديد يبكي لبكيت لحالها وحالي، فاستمرار هذا الحمل قد يهديني صورةً عائلية، صورة لعائلة صغيرة بوجوه تحمل الابتسامات الخالدة، وما كدت أستعيد أحلامي القديمة حتى صعقني صوت الرجل حين قال: ماذا يُتوقع أن أقول لزوجتي؟ كيف سأخبرها عنكِ وعن الجنين الذي تحملين؟
وأصابتني الحيرة حينها، فإن لم تكن تلك المرأة زوجته فمن تكون؟ ثم تساءلت أين أنا؟ في أي البيوت أسكن؟ هل أنا في أحد تلك الأماكن المخصصة لممارسة تلك العلاقات الشاذة؟ لا.. لقد تخليت عن كل أحلامي، لم أعد أريد أن أحمل أي شيء هنا. لا ملابسهم النتنة، ولا صورهم العائلية، ولا المرايا الصقيلة، أُفضل أن أكون عالقًا بأعقاب أحذيتكم التي تجوبون بها أفقر وأقذر الشوارع على أن أسكن مكانًا بلا روح كهذا.
مرّت علي أيامًا عصيبة، ومرَّ على هذا المكان رجالٌ ونساء بوجوه مختلفة. حمّلوني الثياب النتنة، والمناشف المبتلة، والعباءات السوداء.. والأسئلة الموجعة.
إلى أن أتت المرة الثانية التي استعدتُ فيها حلمي القديم، حين زار هذا المكان رجلٌ بمعية امرأة في منتصف العقد الرابع. حملوني ما يشاءون من ثيابهم، ولم أحفل بأي شيء، لا بأحاديثهم المقتضبة، ولا بلحظاتهم الخاصة، ولا بأشكال وجوههم وأمزجتهم الغريبة. لم أحفل إلا بصوت رنين هاتف المرأة المتكرر، فقد كانت تنظر إلى الهاتف في ذعرٍ واضح. وتقول بنفس الدرجة من الذعر: أبنائي، هل أرد، ماذا أقول؟
وأجابها الرجل بثقة بدت لي مثالية: لا تخشي شيئًا. أنتِ زوجتي على سنة الله ورسوله.
هي زوجته إذن، كيف تخشى زوجته من أبنائها؟، ومن يكونون أبنائها إن لم يكونوا أبناءه؟!، لا عليَّ، لمَ أهتم لكل هذا. لقد سعدتُ جدًا بأني أعيش الآن في مكانٍ لا تتسلل إليه العلاقات الشاذة عن المألوف وذلك يكفيني لأتنفس الصعداء مجددًا، هكذا استعدتُ حلمي القديم الدافيء، حلم حمل الصور العائلية. الصور العائلية الجميلة، تلك التي تحفظ الابتسامات المطمئنة من الفناء والزمن، يا لهذه الصور العائلية.
وما كدت أستغرق في حلمي، حتى غادرني ذلك الرجل الغريب وامرأته كسواهما إلى غير

رجعة، ومرَّ على هذا المكان أزواج متعددون غيرهما بعد ذلك. ولم يحتفظ هذا المكان بأيٍ من تلك الوجوه، وكذلك أنا. كما لم أعد احتفظ بحلمي الأثير اللحوح في حمل الصور العائلية، لقد فقدتُ هذا الأمل للأبد، وصرت لا أعدو مسمارًا مسكينًا، دقته أياديهم في شقةٍ صغيرة كثيرًا ما صار يستأجرها أصحاب زيجات المسيار مؤخرًا. وليس لي الحق في استئجارهم بدوري لتحقيق أمنياتي الساذجة البالية.

مهن بذيئة

الشوارع تخلو عادة من أثر للحياة في شتاء هذه المدينة، وفي صباحاتها تبدو مقفرة سوى من سيارات بعض سكانها المتأخرين عن أعمالهم، والحي الذي يقع ضمن دائرة عملي، فقير ومهمل، وعملي كموزع خدمات للمرافق، وقاطع خدمات أيضًا! كما يحلو لأصدقائي التندّر مني! أو ربما "عشماوي المنازل"، اللقب الذي يكاد يبدو لي أنهم يستخدمونه في غيابي!، عمل مخفف ليومين في الشهر، يومان متتاليان، يوم لقراءة العداد، وآخر لفصل الخدمة وهذا الأخير يضطرني لحمل مفتاح قفل غليظ والاستعداد للعديد من المشاكل.

السائق بجواري متجهم دائمًا، منذ اللحظة التي نخرج فيها من مكتب التوزيع، كم تمنيت أن أكون مثله، لو أنني مجرد سائق فقط، بالتأكيد سيكون شعور الذنب عن فعلتي أقل، وسيكون معاشي لأبنائي أكثر تقبلًا وسِعة حتمًا.

هذا الشتاء البارد الذي يغطي المدينة والطرقات والقطط الضالة، مثلهم أطفالي اللذين ينتظرون مدخر مرتب عملي البذيء آخر الفصل، طمعًا في إجازة لمدينة ساحلية لا ينقطع بها الخدمات على أيدي أمثالي من مرتزقة القانون والهيئات الحكومية.

مديري يعدني بعلاوة إن قمت بعملي على أكمل وجه، وهذا الـ "أكمل وجه" يتطلب فصل أكثر عدد من العدادات بالطبع، دون مشاكل مع أحد، وبأقصى سرعة وسرية ممكنة! زملاء العمل في الأحياء الراقية، يجدون عملهم أكثر طمأنينة وأقل إثمًا، السكان موفورون ويقضي أكثرهم العطلات في الخارج، لذا فهم خارج احتياج المرافق، وقد يسددون فواتيرهم دفعة واحدة لفترات، وأحيانًا لا يدفعون فواتير أصلًا!

أتذكر زميل مهنة في مصلحة أخرى، كان قد حكى لي عن موقفه المحرج مع عجوز فقيرة في حي بسيط تترجاه أن لا يقطع عنها الخدمة من أجل فاتورة بقيمة بضعة جنيهات، على الأرجح في استطاعته أن يقوم هو بدفعها كصدقة في مسجد مجاور، وبخل بها على عجوز أقل غنى وأكثر تعففًا، يقول زميلي أنه طبّق نص النظام، وفصل العداد، وواصل عمله ودموع العجوز تنهمر مع تمتمات بسيطة منكسرة. ليواجه زميلي في شارع آخر رجلًا ضخمًا ذو مسحة خشنة، خارجًا من منزله الذي يقع ضمن قائمة الفصل لديه، وبينما هو يهمّ بفصل العداد، حتى أمسك بياقته الرجل، وأقسم إن لم يعيد تشغيل العداد لن يتراجع عن كسر رقبته! تذكر زميلي حينها، أن مديره لن يمنعه من كسر رقبته، ولن يقوم بأقل من زيارة عابرة في المستشفى، ولن تغطي العلاوة نفقات علاجه وتعول أسرته في رقاده، فأعاد تشغيل العداد مرغمًا. وعندما تذكر صديقي، العجوز التي تركها تبكي قبل قليل في الشارع الآخر، أخذته شهامة متأخرة، وأعاد لها الخدمة!

مع كل استعمال لرخصتي في قطع الخدمات عن السكان، كنت أتساءل ترى ماذا لو حدث لي مثلما حدث لزميلي؟ كيف سيكون مصير رقبتي إذا طبقت نص النظام؟ وإن تعللت بأن ليس كل البيوت قد يسكنها أمثال هذا الرجل الضخم، ما حجم الأرق النفسي الذي سينتابني فيما لو فصلت

الخدمة عن عائلة بحاجة ماسة لها، لديها طفل صغير نائم في غرفة مظلمة، أو عجوز لا تملك ثمن مكيف رديء، أو مريض تحت الأجهزة أو، أو. أصبحت أشعر بإثم لا حجم له، من عملي هذا. لكن ما العمل إذا كانت قائمة قطع الخدمات هي أول فكرة يطالعها صباحي المحبط؟، ما العمل؟ لا فائدة من تكرار طلبات نقلي لقسم آخر، كطباعة الفواتير مثلًا، أو على الأقل نقلي إلى أحياء أخرى، أكثر غنى ورفاهية لا تثير الشعور بالذنب، كبقية زملائي الراضين.

كل وردية عمل، أقرأ وأعاين وأفصل، وأوزع أوراق محبطة على عدادات منطفئة، ذلك اليوم قمت بعمل ضخم حتى بقي ذلك المنزل الأخير، مائة وعشرين فاتورة وزعتها، من بينها سبعون عدادًا فصلت، وخمسون دعوة ظلم على الأقل تلقيتها!، ما أن حركت مفتاح الفصل للمنزل الأخير وانقطعت الخدمة عنه، وبينما زميلي السائق يرسل لي إيماءات لم أنتبه لها تدعوني للحذر!، وإذا برجل ضخم غليظ الملامح، يخرج ويزمجر في وجهي كمارد: "مين ابن الـ .. اللي فصل الخدمة؟"، وما كدت أفكر بالهرب، حتى كانت ياقة قميصي في يده، وجسمي يترنح كما الياقة، وقدماي تتأرجحان كعداد مهتريء!، وترتفعان عن أرضية مدخل البيت، ومفتاح الفصل اللعين في يدي! لم أدر ماذا أفعل؟ عيناه المظلمتان تتقدان شررًا، وتطلبان مني إعادة الخدمة التي انقطعت للتو، وحتى رفيقي السائق هرب ! وبدا أن كل شي تخلى عني، إلا مفتاح الفصل! قدماي المعلقتان، ووجهي أمام الغضب الصارم، والعداد الساكن، كلها تدعوني للتعاون مع الرجل أنا ومفتاح الفصل.

أعدت زر العداد لوضع التشغيل، ليطلق هو ياقة قميصي وما بقي من مصيري من يده، وترتطم قدماي بالأرض، ثم يأتيني الصوت الهادر: "تاني مرة هلزقك في الحيطة! فاهم؟!". وتسمرت حتى دخل الساكن الضخم للداخل.

كفأر جبان، مشيت أو للأمانة ركضت مسافة لم أحسبها، حتى تراءى لي السائق من بعيد دون أن يحاول الاقتراب! انتهى عملي البذيء ذلك اليوم حزينًا ومحبطًا، مخلفًا شعورًا أكبر بالذنب وبالذل معًا. وفي شهامة متأخرة، وبلا وعي تام، سألت زميلي السائق بحسرة: أين دار العجوز التي بكت اليوم؟

الغبار

يجثو على ركبتيه ليبحث تحت الأريكة عن سبب تعاسته، ليس مخبولًا ولكنه سمع والدته يومًا تقول أن تراكم الغبار في أماكن كهذه تجعل المنزل مأوى جيدًا للتعاسة والفقر والشياطين، كان لديه أمل بأن يجد أي سبب يفسر الضباب اللامرئي الذي يغطي عالمه وطعم اللوز المر في فمه، مهما أعدت له زوجته من مشهيات، كاد في مرة أن يهشم وجهه في المرآة برأسه لأن النقص ظهر بريئًا من تهمة تعاسته، كل شيء في حياته كامل ومثالي بطريقة استفزته، زوجته تغير لون شعرها باستمرار وتنجح في إختبارات اللغة للترقية السهلة وتظهر جميلة وذكية أكثر مما كانت عليه، مديره يرسل له ابتسامات ذات مغزى قبل إجتماعه مع رؤساء الفروع الأخرى لترشيح ممثليها في أوروبا، الأمر الذي سيصب عليهم الأموال صبًا، يعبر له بواب المجمع السكني الذي يقطن به كيف أنه لم ير رجلًا طيبًا مثله منذ زمن لأنه الوحيد الذي يبتسم له، رصيده البنكي يتضخم باستمرار، يزداد معدل سرعة تحقق أحلامه، بينما يتناقص معدل مشاكله الزوجية تمامًا، مع تغيب زوجته عن المنزل كثيرًا مؤخرًا، لم تعد تصادفه أي تعقيدات محتملة بالعمل مع تغيب مديره بدوره لفترات كافية لأن يدار العمل من خلاله، تتوفر الخيارات وتتوالد لديه ويشعر بأن حياته أصبحت كمركز تسوق ضخم ومجاني، ينتصر بطرق لم يخطط لها ضد الذين أساءوا له أو حاولوا ذلك، يحدث له أي شيء بمجرد أن ينوي فعله صباح كل يوم.

لجأ إلى اعتقادات والدته قبل أن يجنّ من هذه التعاسة التي لا تفصح عن أسبابها، لا بد أنه الغبار، الغبار اللعين الذي يتكوّم تحت الأثاث.

كورسيه

كما يليق بسيدة من أرقى بيوت الدعارة في مدينة كباريس، شعرت صوفي بواجب صارم للحفاظ على المظاهر أكثر من أي شيء آخر. كانت دائمًا ترتدي مشدًا محكمًا، لذلك كانت دائمًا تشعر بالألم، ولكن الأمر بالطبع كان يستحق كل هذا العناء.

يحب المقامرون صوفي، وصوفي تحب المال.

كان هناك وقت عندما صار من ألوان الصعوبة والألم فكرة إزالة المشد عن جسدها في نهاية اليوم، حتى صارت تنام فيه. لزمن طويل كان طبقة أخرى تحيا فوق مسامها، إلى أن جاء يومها الأخير، وماتت فيه.

قال متعهد دفن الموتى أنه من المستحيل نزع المشد عنها من دون تمزيق لحمها عن سائر الجسد، حتى أنها دفنت فيه أيضًا.

بعد ذلك قال المقامرون في وداعها، بعد أن ألقوا نظرة على الجسد المشدود بعناية في وسط التابوت:

"مرحى يا صوفي".

بينما من بين خيوط سحابتها السماوية، همست ردًا عليهم: "تبًا لكم".